ذكر الخبر عن سيرة المنصور فى ترتيب جيوشه

وتعبية جنوده

قال الفشتالي كانت السيرة على عهد ابي عبد الله محمّد الشيخ المهدي وولده الغالب وولده المتوكّل سيرة العرب في الجيش من المآكل والملبس وغير ذلك ولمّا ولي المعتصم حمل الناس على السيرة العجميّة وجنح اليها في سائر شئونه لما راى منها في بلاد الترك حيث كان بها فكره الناس ذلك وابقوا منه وقوفاً مع العوائد فلمّا جاء الله بالمنصور الّف بين سيرة العرب والعجم واصطفى من العجم موالي وربّاهم بنعمته واشمل لهم درر احسانه منهم مصطفى باي ومعناه بلغة الاتراك قائد القوّاد ويختصّ به قائد الاصباحيّة وكان برسم حراسة الباب العلّي ومنهم الباشا محمود وهو صاحب خزائن الدار بيده مفاتيح بيوت المال ومنهم القائد العلوج قائد جيش العلوج ومنهم الباشا جودر فاتح السودان وهو قائد جيش الاندلس وكان لاهل الاندلس جيش عظيم رماة ومنهم عمر قائد جيش السوس فهولاء اكابر العلوج وتليهم طائفة اخرى منها بختيار وبقي ثمّ انّ جيش العجم من الاتراك والعلوج قسمه الى اقسام منها البياك وهم اهل القلانس الصفريّة المذهّبة ذوات الاعراق من ريش النعام المساوّن يقفون سماطين امام قبّته او فسطاطه والسلاق اهل القلانس الطويلة المسبولة على المناكب ويناط بها من اعلا الجباه جعاب صفر مذهّبة ويزيدون عند الحزام باجنحة طوال يربعونها ايضاً من ريش النعام الباقي على اصل خلقته ويركزونه بالجعاب المنوطة بالقلانس من اعلا الجباه ويرسلونها الى وراء يقفون هولاء خلف البياك وبابردوش وهم اهل اللقاقيف وهى رماح قصيرة غليظة العصا مغشاة بالحديد مرصّعة بمسامير بيض ركبت عليها اسنّة

عظام وزجاج هائلة ينبت من ريشتي كلّ سنان منها اضلاع مستقيمة ويقف هولاء خلف السلاق والشنشريّة وهم اهل الطعام وضعاً ورفعاً لا غير وقائدهم بختيار من سبي وقعة وادي المخازن والقبجيّة وهم اهل حفظ الابواب وغلقها وفتحها وقائدهم مولود الشاوي وطائفة من هولاء تحرس ليلاً وتطوف على مسائف السور المحيط بالدار ومن وظيفة هولاء خدمة الكرسي والسرير اللذان يجلس عليهما بالايوان وتعاهد انماط الجلوس وكنهها والشواش وهم الذين يتولّون ضبط مصافّ الجيوش في الحرب والسلم وانهاء الكتب والرسائل للجهات بخير او شرّ قال القشتاليّ وهذا ممّا زادت به دولته على سائر الدول فاذا خرج في يوم عيد او لملاقاة او لتهنية خرجوا مترتّبين هكذا وكلّ قائد يقف عند انبعاث جيل جيشه تحت الوية محفوف بجيش من روساء جنده اهل الخيل وهم الذين يدعون عندهم بلُكُباشات فاصلاً بذلك بين جيشه وجيش من يردفه خلفه قال القشتاليّ والترتيب الذي جرى به العمل في عسكر الناس ان يتقدّم اوّلاً جيوش السوس ثمّ يردفه جيش شرافة وكلّ منهما ينقسم جيلين ثمّ يردفهما العسكران العظيمان عسكر الموالي العلوج ومن انضاف اليهم وعسكر الاندلس ومن لبس جلدتهم ودخل زمرتهم وهذان يسيران صفّين متواليين لاستواء مرتبتهما وعند العطا تارة يتقدّم هولاء وتارة هولاء غير انّ الموالي يكونون في الميمنة لمزيّة الولاء وكلاهما يحفى بموالاة ركابه ويتقدّم قائدها محمود قائد الموالي وجودر قائد الاندلس وترفع على راس كلّ منهما الرايات ويحفّه عسكر من بلكباشات ثمّ تتّصل بهذين العسكرين الدخلة العظيمة المولفة بين البياك والسلاق وبلبردوش تسير الفرق الثلاثة امام المنصور صفوفاً متوالية فامّا البياك فيلون ركابه يحفّون به يميناً وشمالاً ويرفع لبعض رماحه اليزنيّة المنصوبة امامه ومنهم صاحب المظلّ المرفوع على راسه كالغمامة يحمله حالة ركوبه اقربهم درجة لقائدهم ابرويز واذا مشى للمسجد الجامع المنصور من جهة قبور الاشراف او للمشتهى على رجله حمله ابرويز بنفسه ثمّ يسير عن يمينهم وشمالهم السلاق

ويسير عن يمين هولاء وشمالهم بلبردروش اهل اللقاقيف وتتكيّف من الجميع صورة تزرع في القلوب الرعب وتسير النجائب فيما بين سماطَيْ هذه الدخلة مجنوبةً صفّاً صفّاً الى الوية عساكر النار يقودها صنف يدعون السرّاجة ركباناً وكانت نجائب الخلفاء يقودها الرجالة من الوزغة وهذا اكمل مزيّة وجيش الاصباحيّة الذي لنظر باى‌لاربای ينقسم الى كتيبتين عظيمتين يسير احداهما ذات اليمين والاخرى ذات الشمال امام الركب مرفع اللواء العظيم الابيض المدعوّ باللواء المنصور علامة على شعار الدولة على راس المنصور يسامت من خلفه وهنالك الوية كثيرة ذات الوان مختلفة وامامه الطبل العظيم الذي يسمع دويّه من مسافة بعيدة ومن خلفه الطبول الاخرى معها الغيطات واحدها غيطة يتولّى النفخ فيها قوم من العجم اساتيذ يتعلّمونها فينفخون فيها فتنفث منها اصوات والحان لا تحرك الطبع ولا تبعثه على شيء دون الحرب فانّها تشجع الخيل وتقوّي جاش الخائف حكمة فيلسوفيّة وهنالك مزامير اخرى وجعاب طوال صفريّة على مقدار النفير تسمّى الطرنبطة ممّا احدثه ايضاً في دولته وزادت به دولته على غيرها فخماً وضخامةً ويردف خلف هذه الالوية والالة من خلف امير المؤمنين في موكب عظيم فهذا ترتيب جيش المنصور باختصار كثير من مناهل الصفا . وذكر بعضهم انّ المظلّة التي وصفناها تكون فوق راس المنصور هو من محدثات ملوك الدولة والذي اعرفه من كتب التاريخ انّها كانت من قديم ففي ابن خلكان في ترجمة يعقوب وزير العزيز بن نزار انّه لمّا توفّي خرج العزيز لجنازته وعليه الحزن وركب بغلته بغير المظلّة وكانت عادته لا يركب الّا بها . ولعلّ الملوك السعديّين اوّل من استحدثها بالمغرب والله اعلم وما ذكره الفشتالي من توافر جنود المنصور وتكاثر جيوشه هو كذلك وقد ولعت العامّة في ذلك باخبار واهية وزعموا انّ المنصور خرج مرّة للرميلة بظاهر مرّاكش ولم يعلم اصحابه بخروجه فحين علموا بخروجه تبعوه خفافاً وثقالاً فامر بعدّ ما معه هنالك من الجيش فوجد ثمانين الفاً فقال

يا سبحان الله قد خاطرنا بنفوسنا حيث ركبنا في هذا العدد لقلّته ولا يخفى ما في هذا الكلام من الهذيان والزيادة والذي ذكره الشيخ ابو العبّاس احمد افقاي الاندلسيّ في كتابه المسمّى برحلة الشهاب الى لقاء الاحباب ما معناه قال انّ جزيرة الاندلس استردادها من ايدي الكفرة سهل واسترجاعها منهم قريب ولّما دخلت ايّام المنصور مرّاكش وجدت عنده من الخيل نحو ستّة وعشرين الفاً فلو تحرّكت همّته لفتحها لاستولى عليها في الحين انتهى بالمعنى ونقلته من حفظي وكذلك انقال هذا الكتاب كلّها من حفظي والله وليّ التوفيق

ذكر الخبر عن طرف من شجاعته وحزمه

وضبطه وشهامته

كان المنصور رحمه الله شجاعاً بطلاً مقداماً لا يكترث الّا بالشجعان والابطال ولا يصطلى الّا بنار الطعان والنزال وله بصيرة بمكائد الحروب وخدع القتال وقد انشده وزيره ابو الحسن علّى بن منصور الشياظمى في بعض معاركه مع المتوكّل بيتَىْ الكاتب ابي عبد الله محمد بن عيسى فيه

هو الغيث ثمّ البحر في الجود والندا وليث اذا جدّ الطعان هصور
يفوق السهام عزمه وانبعاثه ويقصر عنه في الثبات بثير

فاجابه المنصور ببيتَىْ ابي فارس

ونحن اناس لا توسّط عندنا لنا الصدر دون العالمين او القبر
تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن خطب الحسناء لم يغله المهر

ومن حزمه انّه كان متطلّعاً لاخبار النواحي باحثاً عن الانباء غير متراخ في قراءة ما يرد عليه من رسائل عمّاله ولا يبطئ بالجواب ويقول كلّ شئ يقبل التاخير الاّ مجاوبة العمّال عن رسائلهم وكان الكتّاب لا يفارقون مراكزهم الاّ في اوقات مخصوصة قال الفشتاليّ ولقد كنّا بالباب يوماً يعني معشر الكتّاب قبل ان يخرج علينا المنصور فورد النذير على الكاتب البليغ ابي عبد الله سيّدي محمّد بن عليّ الفشتاليّ بانّ ولداً له في النزع فلم يملك نفسه ان ذهب لداره فخرج المنصور على اثر ذلك فسال عنه فقيل انّه ذهب لداره فاستشاط له غضباً وبعث وراءه فجيئ به مزعجاً وما شككنا في عقوبته فلمّا مثل بين يديه قال له ما ذهب بك فذكر له عذر ولده وانّه اشتدّ به المرض ولم ينجح فيه دواء الاطبّاء فرقّ له وقال له انّ امراض الصبيان لم ينجح فيها الاّ طبّ العجائز ولا كعجائز دارنا فابعث من يسالهنّ ومن حزمه انّه اخترع اشكالاً من الخطّ على عدد حروف المعجم يكتب بها ما يريد الاّ يطلع عليه احد يمزج بها الخطّ المتعارف فيصير الكتاب مغلقاً اذا سقط او ضاع او وقع في يد عدوّه لم يدر ما فيه ولم يعرف معنى ما اشتمل عليه فكان اذا خرج احد من اولاده او عمّاله ناوله خطّا من تلك الخطوط يفكّ بها رسائل امير المومنين اليه ويكتب عنوانه كذلك ومن ضبطه انّه تعلّم الخطّ المشرقيّ فكان يكاتب به علماء المشرق كتابة كاحسن ما يوجد في خطّ المشارقة وممّا وقع له في ذلك انّه بعث بطاقة بخطّ يده بالخطّ المشرقيّ لكاتبه ابي عبد الله محمّد بن عيسى يستدعي منه كتاباً فبعثه اليه ابن عيسى الكاتب المذكور صحبة هذين البيتين

سقتني كاس السرور دهاقا　　خطوط انتنى في مهرق
رات كفّ احمد في المغرب　　بحرا فجاءت اليه من المشرق

ذكر هيئته فى السفر وحالته فيه

وما يناسب ذلك

قال صاحب زهرة الشماريخ انّ المنصور كان قليل الاسفار وانّما سافر لفاس مرّتين لاغير وكان متفرّغاً للذّاته مكبّا على شهواته ايّام خلافته . وبه يعلم ما شاع على الالسنة انّه يمكث بفاس ستّة اشهر وبمرّاكس مثلها ليس بصحيح والله اعلم وكان المنصور اذا سافر استعدّ غاية الاستعداد واحسن في التهيئة والتعداد قال صاحب النفحة المسكيّة كان له قصر من عود مسمّر بمسامير وحلق ومخاطيف وصفائح مفضّضة على هيئة عظيمة وقد احدق بذلك كلّه سرادق كالسور نسيج كتّان كانّه حديقة بستان او زخرفة بنيان وفي داخلها القباب الملوّنة من حمراء وسوداء وخضراء وبيضاء كانّها ازاهير الرياض قد نقش ذلك احسن النقش وملئ بابهى الفرش وللسرادق الذي هو كالسور ابواب كانّها ابواب مشيدة القصور يدخل منها الى دهاليز وتعاريج ثمّ ينتهى منها الى القصر الذي فيه القباب والقصر كانّه مدينة يتنقل بانتقاله وهو من الابهات الملوكيّة التى لم يوجد مثلها عند الملوك الماضين . وهذا السرادق يسمّى بالسياج وفيه يقول العالم الامام الاكبر مفتى الحضرة ابو مالك عبد الواحد بن احمد الشريف والكاتب الارفع البارع ابو فارس عبد العزيز بن محمّد بن ابراهيم الفشتاليّ قال في مناهل الصفا خرج المنصور لزيارة ضرائح الصلحاء باغمات فتاخّرت وراءه فالحقنى ابو مالك المذكور وانا في اخريات الناس فقال لي

ابا فارس بان الخليط وودّعوا ... فقلت ووتّوا وحسن الصبر منّى شيّعوا

فقال وغرّد حادى البين والشقّت العصا ... فقلت وكاد فؤادى للنوى يتقطّع

فقال الى الله اشكو فرقة منهم وقد فقلت تجرّعت من كاس النوى ما تجرّعوا
فقال لئن شرّد السلوان عنّى بعدهم فقلت فنى صحبة المنصور انسى ابجع
فقال ندور عليه هالة لقبابه فقلت ومركزها قصر الخلافة يلمع
فقال اساج بها بحر الندا متموّج فقلت ومن افقه شمس الامانة تطلع

وكان المنصور خرج لزيارة رجال اغمات في شارة حسنة فلمّا بلغ اغمات مكث فيه يومين وفي اليوم الثالث خرج لزيارة الامام ابي عبد الله الهزميريّ وعاج على طريق الشيخ سيّدي عبد المجيد ووقف عند الحيّانة الكبرى فدعا ما تيسّر وفرق مالاً على ذوي الحاجات على يد ابي القاسم الشاطبي والفقيه الامين علىّ بن سليمان التاملىّ وكان معه الفقيه القاضى ابو مالك عبد الواحد الحميديّ استقدمه من فاس برسم القراءة معه وكان الحميديّ لوذعيّاً خفيف الروح وفي هذه السفرة صدرت من الحميديّ الابيات التى تباري في معارضتها فقهاء الدولة وشعراؤها وذلك انّ الفقيه الفاضل الكاتب ابا زيد عبد الرحمن بن محمّد بن عبد الله العنابي بعث بكبش سمين وعسل للقاضى الحميديّ تحفة فكتب مداعباً بهذه الابيات

اياكاتب السرّ يا من بدت محاسنه في الورى باهره
هديت اليّ النشفا وصلة فاكرم بها منحة ظاهره
وكبشاً سمينا له كلوة تفوق الكلا نعمة زاهره
فلا زلت تثبت كتب الانام رسوماً لاعدائه قاهره

وقال ابو فارس عبد العزيز بن محمّد الفشتالي

ابحر علوم طفت زاخرة وشمس معارفها الباهره

لك العفو فضلاً فقد اصبحت كتائب نظمكم نائره
وهزت صوارم ابداعها فصلت بها صولة قاهره
بقيت تشنّ بها غارة لنشر امثالك السائره

وقال ابو عبد الله محمّد بن علّي الفشتالّي

نسجت ابا مالك حلّة بصنعاء افكارك الحاضره
واجريت ماء البديع الى رياض فكاهتك الساحره
واخفيت قيد المعاني على مواكب اغراضك الظافره
عيون البيان ولاكنها لغير النُهَى لم تكن ناظره
فخذها بديهة من قدغدت وجوه فصاحته سافره

وقال ابو مالك سيّدي عبد الواحد بن احمد الشريف

اشيخ الجماعة يا قطبها ومن في العلا مركز الدائره
شننت بابياتكم غارة واحييت لي همّة غابره
وذكّرتني مربعاً لم تزل مقيماً به مقلتي ساهره
وحرّكت فكري بعلم غدت بصدري مراسمه دائره
فهذا جواب لابياتكم الى ابن بدور العلا السافره
سليل الافاضل حقّاً ومن محاسنه في الورى ظاهره

وقال الكاتب ابو عبد الله محمّد بن عمر الشاوّي

امحي رسوم القضا الدائرة وانسان مقلته الساهره

ومطلع شمس المعارف من مغاربها حكمة ظاهره
وبحر العلوم التي اوجبت له العزّ والفخر في الاخره
وقاضي عساكر ملك غدت لاخمصه السبع كالسائره
ودانت له الارض طولاً وعرضاً فارسل املاكها سائره
الى بابه تبتغي وطئة وامناً لسطوته القاهره
كفاك افتخاراً ابا مالك حضورك ايّامه الزاهره

وقال ابو عليّ الحسن بن عبد الكريم

اشيخ العلوم التي قد سرت بدائع ابياته السائره
طلعت وكنت كنجم الصباح وسدت باخلاقك العاطره
اذا ما نويتم طلاب العلا فكلّ المعالي لكم سافره
اتتني بالامس ابياتكم رياض المعاني بها زاهره
فاشعاركم ذكر عبد المجيد وافصحت فصاحته دائره
فلو مدّ في عمر البحتري لاعجب من فطنة باهره
علوت وفقت قضاة الورا فدم هكذا مركز الدائره

وقال الكاتب ابو عبد الله محمّد بن عليّ النهوزاليّ المعروف بالنابغة

ايا تحفة الدهر يا ناظرة وطرفة ايّامه الناضره
وبدر العلوم التي قد نضت دجى الجهل انواره الباهره
ومن كرعت في حياض المعاني له فطنة بالذكا ساحره
انظمك ام قرقف بابلي ولفظك ام نفثة الساحره
تعلّل ارواحنا مدعسا بارواح روضتك الزاهره

ام دارنا قد سرى موهنا ام ارتاح اخلاقك العاطره
فككتم به من اسار العدا قيودا بارجائها دائره
فلا زلت يا شيخنا يهتدا بنورك في الليلة الساهره

وقال القائد الوزير الفقيه ابو الحسن علىّ بن منصور الشياظمىّ

ايا علم العلم يا ناشره وحامل رايته الظافره
وقاضى القضاة التى فاخرت به الشرق مغربنا الظاهره
وناظم عقد المعاني التى جرت دونها المثل السائره
واجرت بفعل الطلا في النهى كذا بشذا الروضة الزاهره
وظلت تردّد حسن الثنا تروّيه عن نفسك الطاهره
واخلاقك العزّ لا قصرت عن الندر بالدرر الفاخره
وايقظت عمداً عيون البيا ن من كل فتانة ساحره
تشير بمعنى لطيف الى محاسن اخلاقك الباهره
وثنّيت سحر البلاغة في مهارق ظلّت لكم شاكره
رويدك نبّهت سرب المعاني بعيد الكرا فاهتدت حاضره
ونُبهتكم من بليغ بنا حديد الذكا نافذ الباصره
يطبّق منها المفاصل غير هيّابة ذي قرى ظاهره
تصرّف اقلامه بالكلام كما الريح بالمزنة الماطره
ولولا المضاء بلا نبوة لشبّهتها بالظبا القاتره
فللّه درّك من ماجد محاسنه جمة وافره
ومن سيّد جامع للذكا حلو الشمائل والنادره

ذكر الخبر عن طرف جوده وسماحته وقصد الناس له

من الاصقاع البعيدة

كان المنصور رحمه الله سخيّ النفس جواد الطبع لا يبالي بما يجود به ويعطى عطاء من لا يخاف الفقر قال الفشتاليّ وكان الشيخ علم الاعلام ابو العبّاس احمد بن علّي المنجور يقول ما عهدنا بذل المئين في الصلات الّا في ايّام الشرفاء ولا عهدنا بذل الالوف الّا في ايّام المنصور وقال في المنتقى انّ المنصور وهب ازيد من الالف كما وقع له مع الكاتب البارع ابي عبد الله محمّد بن عمر الشاويّ المعروف بالجزائريّ وكان قديم الصحبة للمعتصم واغترب معه في بلاد الجزائر مدّةً مديدةً وسنين عديدة فلمّا افضت الخلافة للمنصور سوّغه مغارم مسفيوة بمداشرها مكافاة على الهجرة الّا انّ المنصور استثنى اعشاراً لزيت فكتب له ابن عمر بابيات ليشملها العطاء فاعطاها له ايضاً فكان يبيع بها بالالاف من العين وهذه الابيات التى كتب بها اليه

ابحر الندا خير الملوك سجيّة ... وافضل سلطان رقى فوق منبر
لقد سرت في الاسلام احسن سيرة ... وخصّصت بالنصر العزيز الموزّر
امولاى لاحظنى بجودك انّنى ... فقير نوّال من لدنك موفر
فهذا زمان الزيت قد جاء مقبلا ... ولي رغبة فيه بغير تنكّر
فمنها اشتعالي في الدجا وتطيّبي ... ودهن طعام ثمّ منها تعطّر
لانّي بليد الطبع اشتاق ريحها ... فنى الزيت يامولاي مسكى وعنبري

ومن جوده انّه اعطى للشريف الاديب ابي الفضل المعروف بابن العقّاد المكّى

نحو اربعة الاف اوقية دون الخلع والكسى التى كان يخلع عليه ايّام الاقامة ودون الكتب التى منحه وكتب له كتاباً لخاقان ملك الاتراك يولّيه خطّة القضاء باليمن فنفذ ذلك خاقان كما اشتهر وكان ابن العقّاد قدم من مكّة وافداً وقدم بائره امام الدين الخليلىّ من بيت المقدس وقدم رجل اخر من اهل المدينة المشرفة المسمّى الشريف قال في نفح الطيب لمّا اجتمع هولاء الوافدون ببابه قال له الخليلىّ يوماً يا امير المؤمنين انّ المساجد الثلاثة التى يشدّ اليها الرحال شدّ اهلها اليك الرحال هذا مكّىّ وذلك مدنىّ وانا مقدّسىّ ثمّ انشد

انّ امير المؤمنين احمد ... بحر الندا وفضله لا يجحد
فطيبة ومكّة واهلها ... والمسجد الاقصى بذاك يشهد

قال في المنتقى فلمّا بلغ الى قوله فطيبة ومكّة اشار بيده الى كلّ واحد من صاحبيه الذين معه ولمّا بلغ الى قوله والمسجد الاقصى اشار بيده الى نفسه ثمّ قال نصرك الله لم يتّفق لملك قصدت ايالته فتبسّم لذلك ايّده الله واجزل لهم في العطايا واجراء النفقة عليهم كما هو دابه بكلّ وافد عليه من ايّ بلد كان فهمّته دائماً طالبة للعلو توّاحة للسمو . قال ابو زيد في فوائده امام الدين الخليلىّ ابن الفقيه المعمّر ابي عبد الله محمّد بن يوسف البطايحىّ المقدّسىّ الشافعىّ امام مسجد الخليل وهو الذي جال في البلاد ولقى المشايخ بمكّة والمدينة ومصر والشام انتقل للقسطنطنيّة فسكنها مدّة ومنها وفد على المنصور بالمغرب ونزل مرّاكش وتارودانت وتوفّى في بعض مقدماته من تارودانت لمرّاكش بالطريق مقتولاً سنة تسع وتسعين وتسعماية رحمة الله عليه ومن شعره

هو والله عفيف نزه ... وله عرض مصون ما اتّلم
وخبير بمدارات الورى ... ومدارات الورى امر مهم

وقوله

احقّ بالصفع في الدنيا ثمانية ... لا لوم في واحد منها اذا صفعا
المستخفّ بسلطان له خطر ... وداخل في حديث الاثنين مندفعا
ومتحف بحديث غير سامعه ... وداخل الدار تطفيلا بغير دعا
وطالب الخير ممّن لاخلاق له ... وجالس مجلس عن قدره ارتفعا
وطالب الرفق من اعدائه وكذا ... ضيف تامّر فاحفظها اخي لمعا

اشار بذلك لما قراته في كتاب بستان الادب قال ثمانية ان اهينوا فلا يلوموا الاّ انفسهم من اتى مائدة لم يدع اليها والمؤتمر على صاحب البيت والداخل بين اثنين في حديث لم يدخلاه فيه والمستخفّ بالسلطان والجالس في مجلس ليس له باهل والمقبل بحديثه على من لا يسمعه منه وطالب الرفق من اعدائه وراجي الفضل من اللئام . ومن مفادات امام الدين الخليليّ ايضاً قال رفع شيخنا مفتي المسلمين بالديار المقدّسيّة شمس الدين محمّد بن ابي اللطف سوالاً نظما وهو

ماذا تقول يا امام عصره ... يا فائقاً بالعلم اهل دهره
انت الذي قد حزت فضلاً وافرا ... وفاح مسك عطره من نشره
هل لبس السروال طه المصطفى ... وهل يسنّ لبسه لستره
ام لا وعجّل بالجواب سيّدي ... بسرعة تحظى بطول اجره

فاجابه رضي الله عنه بما نصّه

من بعد حمد الله تلو شكره ... على جزيل فضله وبرّه
مصلّياً على رسوله الذي ... ارسله بنهيه وامره

اقول انّ المصطفى قد اشترى ذاك ولم يلبسه قط في عمره
كما الشمونيّ حكى ذلك في حاشية الشفا فصن عن نكره
قالوا وما فى الهدى من لباسها فذاك سبق فلمَ لم يدره
ولبسه سنّة ابراهيم لا باس به فالبس لاجل ستره
حرّر هذا ابن ابي اللطف اسمه محمّد معترفاً بفقره
حامداً الله مصلّياً على نبيّه مستغفراً من وزره

وابن العقّاد المذكور هو القائل فى مدح المنصور معارضاً موشّحة ابن سهل وهو هذا قوله

ليت شعري هل اروّى ذا الظما من لمى ذاك الثغير الالعس
وترى عيناي ربّات الحمى لاهيات بقدود ميس
يدخلون السلم في دار اللوى كلح الهجر فؤادي واسر
هدّ من ركن اصطباري والقوى مبدلاً اجفان نومى بالسهر
حين عزّ الوصل عن دار طوى هلّ عيناي بدمع كالمطر
فعساكم ان تجودوا كرما بلقاكم في سواد الحندس
وتداووا قلب صبّ مغرما من جراحات العيون النفس
كلّما جنّ ظلام الغسق هزّني الشوق اليكم شغفا
واعتراني من جفاكم قلق قد تذكّرت جياداً والصفا
وتناهت لوعتى من حرقى ثمّ زاد الوجد بي التلفا
فانعموا لي ثم جودوا لي بما يطف نيران الجوى ذي القبس
شاعة لي من رضاكم مغنما ومداوي جنّتى مع نفس
كنت قبل اليوم في لهو وتيه مع احبابي بسلع اللعب
ومعى طبي فاحدى وجنتيه مشرق الشمس واخرى مغرب

فرماني بسهام من يديه ضرب القلب بقلب متعب
لست ارجو لمقامكم سلما غير مدحي للامام الارئس
احمد المحمود حقاً من سما الشريف بن الشريف الكيس

ومن جوده رحمه الله انّه كان يبعث للسادات البكريّين بمصر محمّد ابن القطب الكبير ابي الحسن البكريّ مكاتبات تشاكل قطع الرياض وتحاكي بسحرها سحر الحدق المراض ومن نظم البكريّ المذكور في بعض رسالاته التي كان يبعث بها لابي العبّاس المنصور ما نصّه

ولمّا نايتم ولم استطع السير لحضرتكم بالقدم
سعيت اليكم برجل الرسول وخاطبتكم بلسان القلم

وذكر صاحب الفوائد انّ هذين البيتين كتب بهما المنصور لملك العجم فاجابه ببيتين وهما

فان زرتم وتفضلتم وشرفتمونا بنقل القدم
فليس بعار ولا منقص دخول الموالي بيوت الخدم

ذكر الخبر عن قراءته وعلومه واستجازته لمحفوظه ومفهومه

قال ابن القاضي كان المنصور رحمه الله خيراً بالعلوم متضلّعاً بالفنون من شعر وتاريخ وسير ونحو ولغة وبيان ومنطق وتفسير وحديث وحساب وفرائض

وهندسة وجبر ومقابلة وتعديل السيارة وله رواية في الحديث وقال الفشتاليّ بدا قراءته القران على معلّم اولاد الملوك في الدولتين الاستاذ ابي عبد الله محمد بن يوسف الدرعيّ ثمّ قرا بعده على الفقيه الاصوليّ ابي الربيع سليمان بن ابراهيم ثمّ بدا الرسالة على الفقيه ابي عمران موسى الردانيّ وقراها ايضاً سرداً ودراية على ابي العبّاس المنجور وعلى ابي فارس عبد العزيز بن ابراهيم وقرا ايضاً علم الحساب واخذ ايضاً علم العربيّة على نحويّ زمانه ابي العبّاس احمد القدوميّ صاحب الحواشي على المراديّ واخذ اصول الدين على الامام ابي العبّاس احمد المنجور وسمع عليه مولّفات السنوسيّ وحاشيته على الكبري وشرحه الكبير والصغير على ملخص المقاصد لابن زكريّ وسمع عليه الخزرجيّة مرّتين ومختصر السعد على التلخيص وسمع عليه ايضاً كافية ابن الحاجب في النحو والشمسيّة في المنطق وجمع الجوامع لابن السبكيّ واجازه فى كلّ ما تضمّنته فهرسته حسبما ذلك فى اوّلها واخذ الفقه عن الحميديّ والمنجور واخذ الكتب الخمسة عن وليّ الله سيّدي رضوان بن عبد الله وعن الرجل الصالح سيّدي محمّد بن علّ عن العلقميّ عن الامام السيوطيّ وحضر ايضاً عند الامام مفتى المغرب سيّدي شقرون بن هبة الله الوهرانيّ التلمسانيّ فى مجالس عديدة من التفسير والفقه والنحو والكلام واخذ عن الامام الصدر مفتى فاس ابي زكرياء يحي السراج ورزقه الله من الفهم الثاقب ما لم يكن لغيره حتّى انّه فهم كتاب اقليدس في الهندسة بغير استاذ لعدم وجوده في المغرب فكان كلّ يوم يفكّ شكلاً من اشكاله وله ايضاً بعض معرفة بعلم التعديل والهيئة قال الفشتاليّ ونقلت مقرواته المذكورة من ورقة بخطّه ورايت بخطّ الشيخ القصّار ما صورته وقلت لمّا اجاز سيّدي رضوان بن عبد الله الجنوي امير المومنين السلطان ابا العبّاس المنصور ما نصّه

روى البخاريّ امير المؤمنين الحسنيّ المنصور ذو الفتح المبين

عن الولي سيدي رضوان عن سيدى سفيان السفيان
عن زكريا عن ابن حجر عن التوخي عن الحجارى
عن الزبيري عن ابي الوقت عن الداودي عن السرخسي الفطن
عن الفزري عن البخارى ومسلماً لزكريا الغمارى
عن زركشي عن البيان المسند عن العساكري عن المؤيد
عن الفراوي مسند الوجود من عبد غافر عن الجلودى
عن ابن سفيان الولي عن مسلم ابقاه ربنا لحوط المسلم

ومن اعتنائه رحمه الله انه بعث لعلماء مصر يستجيزهم رغبة في اتصال حبل السند واقتفاء لاحق ذلك الطريق الاسعد وممن اجازه الامام البكري المتقدم ومن بعض فصول اجازته قوله يمدح كتاب المنصور اليه يثني عليه بالفصاحة فقال ولقد وصل الي المثال المديم المثال المزرى نظامه بعقود اللئال فاذا به السحر الا انه الحلال ولو ادعى احد ان من معجزات احمد صلى الله عليه وسلم ان يمد الله كراماً كاتبين في زمان نجله امير المؤمنين الامام احمد بكتاب كريم على اسلوب قويم يرسله الى محب قديم من النبعة والتصميم لم تكذب دعواه فما من خارق في امته الا وهو من معجزاته صلى الله عليه وسلم وعلى علاه واما ما شرفني به من طلب الاجازة فالبيت والحديث لم يساوِ وهو في اوجه هذه الرتبة الرفيعة المنزلة ولاكن رب اباً ارسل الى ابنه على يد عبده عطاء فنقله واليه بامره حمله وحيث وقع الامر فامر مولانا حتم وطاعته غنم فمولانا مجاز من هذا العهد بجميع ما يجوز لهذا العبد وعنه روايته بشرطه المعتبر عند اهل الاثر والنظر وكذلك مجاز اهل العصر اجازة عام بعام ليكون ابناء الوقت جميعاً على مائدة فضل مولانا وتحت ظلال ذلك الانعام فانه هو السبب في تحصيل ذلك المرام وكتب تحريراً في رابع ربيع الثاني عام اثنين وسبعين وتسعماية محمد بن ابي الحسن الصديقي سبط آل الحسن . وكفى المنصور شرفاً مخاطبة

هذا الامام الجليل وشهادته له بشرفه وقد كان سيّدي محمّد البكريّ من اهل الفيض والعرفان قال شيخ شيوخنا ابو سالم في كتابه تحفة الاخلّاء باسناد الاجلّاء نقلت بخطّ الامام ابي العبّاس احمد ادفال السوسانيّ انّ العارف بالله الشيخ زين العابدين محمّد البكريّ تكلّم على نقطة باء البسملة في الفي مجلس ومائة مجلس . توفّي رحمه الله سنة اربع وتسعين وتسعمائة قاله ابن القاضي في لقط الفوائد وممّن استجازه المنصور ايضاً من علماء مصر الامام العلّامة بدر الدين القرافيّ من ذرّيّة الامام ابي حمرة رضي الله عنه فاجازه باجازة عامّة بسط فيها القول وتركناها قصد الاختصار لاكنّه ختمها بابيات حسنة اذكرها هنا دليلاً عليها وهي هذه

اجزت لمن تفضّل واستجازا ... وبادر لاقتنا خير وحازا
وابرز في سلوك العلم حالا ... به من فضل مولانا يجازا
امام كامل عدل البرايا ... امير المؤمنين حوى فجازا
وذلك بعد تشريفي بامر ... وقصد للاجازة واستجازا
فبادرت امتثالاً قدر وسعي ... ومقتفياً مناهج من اجازا
وقد ابديت حقّاً لا محالا ... به صار الامام به مجازا
بفاتحة وسنّة خير هدى ... وسلسلة لمن حاز امتيازا
بدار الهجرة العليا امام ... لما ابداه من فضل فحازا
وارجو منه يبذل لي دعاه ... بما ارجوه من خير مجازا
بخاتمة تبلّغني مراما ... بجنّات اراها لي مفازا
واشياخي يبلّغهم رضاه ... ويوصلهم الى خير تجازا

وعلى ما ذكره الفشتاليّ انّه كانت له خبرة بعلم الهيئة فرايت في كتاب الفوائد الجمّة ما صورته انّ المنصور كانت له معرفة بعلم النجوم فنظر مرّة في النجوم

فراى جيوشاً هائلةً افزعته وظنّ انّ ثائراً يثور عليه فتحيّر لذلك واخبر به صاحب سرّه الفقيه الامام الامين ابا الحسن عليّ بن سليمان التاملّي فقال له ابو الحسن ليس بوقتنا هذا من له الباع المديد في ذلك الفنّ سوى الشيخ الفقيه ابي زيد عبد الرحمن بن عمر البعقيليّ فامره المنصور ان يكاتبه في ذلك فارسل ابو الحسن لاخيه ابي بكر سليمان يساله عن ذلك وكان ابو بكر يتعلّم على ابي زيد فساله فقال له تلك جيوش الجراد ما لها تعداد فكتب للمنصور بذلك فلم تمض الّا ايّاماً يسيرةً فجاء جراد طبق المغرب وكان المنصور رحمه الله جم الفوائد حسن المذاكرة حلو المحاضرة مشاركاً في الفنون كلّها واذا قرئ بين يديه البخاريّ او غيره صدرت منه ابحاث رائقة واعتراضات فائقة لا يمكن التفصّى منها ولا الجواب عنها وكان القضاة ربّما توقّفوا في النوازل الصعبة فيرجعون اليه فيها وكم مرّة ردّ احكام القضاة بعد ابرامها واطلعهم على وجه فسادها وكان محبّاً في العلماء متنافساً في صحبتهم موثراً لمجالستهم لا يفارقهم حضراً ولا سفراً ويحكى انّه سافر مرّة لتارودانت ومعه جماعة من اعيان العلماء كالقاضى الحميديّ والمنجور وغيرهما فخيّم بباب تارودانت وضرب الناس اخبيتهم فمرّ رجل عليه اطمار بالية وهيئة رثّة فوطئ على حبل من حبال خباء القاضى الحميديّ فصاح عليه الحميديّ من هذه البقرة التى خوّضت على خيمتى مستحقراً بالرجل فجاء ذلك الرجل فقال له البقرة هو الذي لا يجيب عن هذه المسائل والقى اليه قرطاساً مكتوباً فيه هذه الا بيات الستّة ونصّها

الى علمك العالي مسائل ترتقى ... تيقّظ لهنّ يا حميديّ واصدق
فما الحكم فى الاوزاغ هل ساغ اكلها ... وما الحكم فى موتى المجانين فانطق
وهل جاز للمسبوق بعد تشهّد ... دعاه اذا ما رام اكمال ما بقى
وما وزن ليس لي حبيب واصله ... وما جمع قلّة لصاع فحقّق
وما وزنه شمّر ولاتَنِ واتنا ... بجمع سواء والمقيّد اطلق

وبيّن لنا ما في اعوذ بربّنا من ابليس والتخميس فى الكلّ فائق

فتوقّف القاضى الحميديّ عن الجواب فرفعت القضيّة للمنصور رحمه الله فاستغربها وقال هذا رجل من اهل البادية فصيح قاضى قضاة الحاضرة وامر المنجور فاجاب عنها فقال

جوابك في الاولى اباحة اكلها لمذهبنا فاجزم بذاك وصدّق
كذا ابن حبيب في الخشاش اباحه لمحتاجه مثل العقارب فاسبق
وقد قيل فى الاوزاغ يحرم اكلها وذلك فى الكافى ليوسف فارتق
ومقتذر يحكى المخالف منعه وانكره الشيبه فافهم ودقّق
ورجّح ما يحكى المخالف بعض من له العزّ للتحقيق لا للتشرّق
وميّت مجنون جرى خلف حكمه بعلم كلام لا تكن غير متّق
وتحقيقها انّ الجنون اذا طرا يصير كموت فصّل الحقّ فاعبق
فآونة بعد البلوغ طروه وحينا يرى قبل البلوغ فطبّق
وآونة اثر الصلاح وقوعه وحينا بعصيان الكبيرة يلتق
وحينا يدوم للممات وتارة يفيق فخذ حكم الجميع ووثّق
ويندب للمسبوق دعوى تشهّد وفاق امام فى الملاحة فارتق
وليس له فعل كقال واصله بكسر لياء فاكسر العين ترتق
وجمعك صاع فى القليل باصوع واصوع بهمز الواو انهج وتمّق
وان شئت فاقلبه ويرجع آصعا لضابط تصريف فالعلم شوّق
وصاع كعام عينه فرع ضمّة وتحريكه فتح فزنه وحقّق
ومقصود من فى العوذ من لغاية فابليس مبدا العوذ عند الموفّق
وجمع سواء فالذى منه جامد باسوية علم يقاس ففرّق
ومشتقّة وزن الخطايا قياسه سواءية نقل فبالصرع فانطق

ذكر جملة من تاليفه البهية ولمع من غرر ابياته الشعريّة

قال الفشتاليّ الّف المنصور عدّة تاليف كلّها حسنة تدلّ على براعته وسعادة قلمه فمن ذلك كتاب السياسة ونصّ خطبته نحمدك اللهمّ على ما انلت من رياسة وعلّمت من سياسة ووهبت من ملك ونظمت من سالك وكففت من اعداء وهديت من ارتاء ونصلّي على مبلغ انبائك وخاتم انبيائك المويّد باهل ارضك وسمائك من به اقمت على خلقك الحجّة وبلسانه الصادق نهجت لهم في اتباعها المحجّة صلاة تكون منّا كفاء وبمجده السامي وفاء وبعد فلنا حاجة في تكميل انفسنا في قواها البشريّة باستعمالها في حقايق المعلومات العمليّة والنظريّة وعلوم الحكمة العلميّة اولى بنا لما نحن فيه واعون على ما نجليه لهذا الامر العلويّ الفاطميّ او نقتفيه فلنصرف اوّلاً عنان القول اليها ولنجلب بالخيل والرجل في ميدان هذه الطروس عليها ومن الله نستمدّ وعلى عونه جلّ وعزّ نعتمد وهو حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوّة الّا بالله العلّي العظيم الجليل . ومن تاليفه ايضاً كتاب الادعية فيما يقال في العبادات وسائر الحركات والسكنات والمساء والصباح قال الفشتاليّ وكان عازماً على جمع اشعار الشرفاء من اهل البيت وتفرّدها . وامّا ما جمع من التقاييد المتفرّقة فكثيرة فمن ذلك حاشية على التفسير تكلّم فيها مع الزمخشاريّ وغيره جمعها قائده ابو الحسن عليّ بن منصور الشياظميّ وكان المنصور حريصاً على التاليف يامر الفقهاء بالتقييد فامر الفقيه الصدر العلّامة سيّدي محمّد بن عبدليّ الرخراخيّ ان يجمع بين تقييد الامام المسيليّ وتقييد السلاويّ عن شيخهما ابن عرفة في التفسير ففعل ذلك وامر الامام المنجور بشرح الفيّة ابن مالك شرحاً يجمع

ما تفرّق في الشروح والحواشي بحيث يغنى عن سائر ما قيد عليها ففعل فجاء في مجلّدَيْن ضخمين وامره بشرح ملخص المقاصد قال الفشتالي ومما تيّس به تهيّأ وعجباً خزانته عن سائر الخزائن الملوكيّة تآليف الفاضل العلّامة الرحّال ابو جمعة سعيد بن مسعود الماغوسيّ التي منها شرح لاميّة العجم املاه بالمشرق وعليه تغويط علمائه ومنها شرح لاميّة العرب املاه بعضه او كلّه بالمشرق وهذبه بالمغرب وخدم به المنصور وله شرح على درر السمط في اخبار ابن الابّار . وقال في درّة الحجال في حقّ الماغوسيّ المذكور فقيه اديب له تاليف الى ان قال وله رحلة الى المشرق وادى فريضة الحجّ واخذ هنالك عمّن لقي من اهل مصر والشام والحجاز والقسطنطنية وغيرهم وله فيما اظنّ مشيخة قيّد اسماءهم وما سمع منهم ولد بعد الخمسين في غالب الظنّ وتسعماية وهو من اهل العصر وله خطّ رائق ومشاركة في العلوم وفهم ثاقب . وكانت للمنصور عناية تامّة باقتناء الكتب والتنافس في جمعها من كلّ جهة فجمع من غريب الدفاتر ما لم تكن لمن قبله ولا يتهيّا لمن بعده مثله وجلّ كتبه طالعه كلّاً ووقّف عليه بخطّه ونبّه على الغامض وشرح الغريب وامّا نظمه فالسحر الحلال وارقّ من الماء الزلال لتكامل محاسنه وتكاثر بدائعه وها انا اثبت منه قطعاً واجلو عليك منه لمعاً فمن ذلك قوله في وردة مقلوبة بين يدي محبوبة له وهي اوّل ما قال فاجاد واحسن في المقال

ووردة شفعت لي عند مرتهنى ... راقت وقد سحرت بفاتر الحدق
كانّ خضرتها من فوق حمرتها ... خال على خدّه من عنبر عبق

وقال ايضا

من عنبر الشحر او مسك دارين ... بلى ومنه نسيمات الرياحين
مهفهف ان تثنّى قلت مقتضب ... من قضب نعمان او من كبت تبرين

ذنبي اليه ولا ذنب محبّته من اجلها بسهام اللحظ يرمين
يا ما اميلحة ظلماً رضيت به لو انّه دام منه كانّ يكفين
معذّبي مذ حرمت النوم بعدكم فامنن علىّ بنوم غير مفتون
وامض على ورد ذاك الخدّ بزق فم يعوّض الخدّ من ورد بنسرين

وقد وقفت على شرح هذه الابيات في نحو كرّاسين اشتمل على ما فيها من المحسنات البديعيّة والنكت الغريبة والملح الادبيّة ويقال انّ ذلك الشرح للسيّد الحسين الزيّاتيّ رحمه الله تعالى وقال ايضاً

رقيبي كانّ الارض مرءات شخصه فاين تولّى الطرف منّى يراه
مقيم بوجه الوصل حتّى كانّما وصالي هلال والسواد صراه

وقال ايضاً

ايا روضة ضمّت علىّ بزهرها ولم يتلوّ ناظراى سواك
ايحي لنفسى من شذاك بقاءها اذا فتّ طرفى علّ انفى يراك

وقال ايضاً

على جدول غطت علىّ بشعرها لئلّا يرى الشمس الرقيبة اطرف
فبتّ ارى في جدولي بدر وجهها غريقاً ونقطة العبير به كلف

وقال ايضاً

وكيف لقلب في هواه مقلب وانّى له بين الضلوع مقام
فيا شادناً مرعى الحشوانت في الحشا ام بمحل انت فيه دمام

وقال ايضاً وهو من التجنيس المركّب

طرقت حماه والاسود خوادر ... به فتولّى في الظبا وهو بعيد
فعلّمت اساد الثرى كيف تقدم ... وعلّمت غزلان النقا كيف تشرد

وقال ايضاً

تبدّى وزند الشوق يقدحه النوى ... فتوقد انفاسي لظاه وتضرم
فهشّ لتوديعي فاعرضت مشفقا ... على كبد حرّ وقلب يسقم
ولولا ثواه بالحشا لاهنتها ... ولاكنّها تصبي اليه فتكرم
فاعجب لاساد الثرى كيف اجمحت ... على انّه ظبي الكناس يقدم

وقال ايضاً

لمّا نأى المحبوب رقّ لي الدجا ... واتى يعلّلني برعي كواكبه
اولى غراب البين ودّك ياحشا ... البين يرمى للصباح كواكب به

وقال ايضاً

انّ يوماً لناظري قد تبدّى ... فتملاّ من حسنه تكميلا
قال جفني لصنوه لا تلاقى ... انّ بيني وبين لقياك ميلا

قال في نفح الطيب وقد تبارى خدّام حضرة المنصور في تخميس هذين البيتين ومن اشهر ذلك قول الاستاذ الامام الحافظ الاديب البليغ الفصيح ابي العبّاس احمد الزمّوريّ رحمه الله

ورقيب يردّد اللحظ ردّا ... ليس يرضى سوى ازديادي بعدا

ساءه الطرف مد جنا الخد وردا انّ يوماً لناظري قد تبدّا
فتملّا من حسنه تكميلا
وتصدّى من حسنه في استباق يمنع الحظّ من جنى واعتناق
انس اللحظ من لحاظ ايتلاف قال جفني لصنوه لا تلاق
ان بيني وبين لقياك ميلا

وقال ايضاً في جارية من حظاياه الرفيعة اسمها آمنة

شادن نمّ عليه عرفه من خلاصى لسهام كامنه
احلال لي قلب خائف وغزالي بعد خوفي آمنه

وقال ايضاً

لقد اتى صارماً صقيلا ولم يرث ذلك من بعيد
شديد باس متى يعادى وشدّة الباس في الحديد

وقد ردّ بها رحمه الله على من قال في ابن الحديد

هذا اتى بارداً ثقيلا ولم يرث ذلك من بعيد
فهو كما قيل فيه شيء اشهر ما كان في الحديد

وقال ايضاً في طريق التعمية في اسم سلاف

واحور سنان الجفون كانّما لحظه من ريق فاه بقرقف
مضى صارماً لا فلّ صارم لحظه تزايد منه مذ سُلّ تلاه ف

وقال يضاً

هذب الجفون بصحن خدّك سجّلت ولدى الهوى ركّتهم عيناك
فقضى الهوى جوراً بسكري زوّروا شهدت لهم انّي على مضناك

وقال ايضاً

بستان حسنك ابدعت زهراته ولكم نهيت الحسن فيه فما انتهى
وقوام غصنك بالمسرّة يثنى يا حسنه رمانه المشتهى

وقال ايضاً

افنى بها البستان صنوك روضة يقضى بها لمّا مطلت وعودا
اهو البهار محاجر اوانى بها في وقته كي ما تكون خدودا
فبعثتها مرتادة بنسيمها تثنى من الروض النضير قدودا

وقال ايضاً

لي حبيب ياتي بكلّ غريب هو عندي منكر ومعرّف
لست اشكو الصيرفيّ ونحوى انه لي نمى وفيّ تصرّف
فعله فيّ لازم متعدّ ومزيد مجرّد ومضعّف

وقال ايضاً

تحالفت منه عيناه الى سبب كان اتّفاقهما به على عطبي
محرمه العين تقصيني وتدلّسني واللحظ يطمعني فيه ويسخر بي
اشكو نهاى وشوقى وافتراقهما في امره وكلا ذا زاد في تعبي
ان طمت ذاك فمن لي فاشى اوب اوطعت هذا فمن لي فاشى حسب

وقال ايضاً

لا وطرف سلب السيف فقد ... في قوام كغنى الحظى نهد
وومميض لاح لمّا ابتسمت ... فارتنا منه درّا وبرد
ما هلال الافق الّا حاسدا ... منها حسناً وبهاء وغيد
ولذا عاش قليلاً ناحلا ... كيف لا يفنى نحولاً من حسد

وقد عارض رحمه الله بهذه الابيات ابيات الشيخ الاديب الامام الخليليّ المتقدّم الذكر وهي قوله

لا وفرع كدجى الليل غسق ... وجبين ضوءه ضوء الفلق
ومحيّا كلف البدر به ... وخدود نورها نور الشفق
ما غزال الخيف الّا حاسدا ... منه جيداً والتفاتاً وحدق
ثمّ خافت فتولّت شردا ... كيف لا يشرد خوفاً من سرق

وقال ايضاً في حظيته الشهيرة نسيم صاحبة قبّة النسيم مغمياً

يا هلالاً طلوعه بين حجبي ... وغزالاً كناسه بين جنبي
انّ سهماً رميت غادرهما ... لو تناهى ما شك اخر قلبي

وكتب على هذين البيتين بخطّه الشريف ما صورته قولي انّ سهماً تنصيص وغادرهما اسقاط وهو اشارة لاسقاطها من هذا الاسم وقولي وتناهى انتقاد والانتقاد الاشارة الى بعض اجزاء الكلمة ليوخذ الاسم المطلوب كان يذكر الوجه او الصدر او التاج او الراس ويعنى به الحرف الاوّل من الكلمة او القلب والجوف والحشا والخصر ويراد به الوسط والاخر والمنتهى والختام ويقصد به اخر الكلمة فقولي لوتناهى معناه انّه لو اخذ لفظة هم غير مشتاة

فبقيت الميم من هما وقولي ما شك اخر قلبي انتقاد ايضاً واردت باخر قلبي الياء ويسمّى ايضاً التعمية وهو ان تذكر الاسم وتريد المسمّى او تذكر المسمّى وتريد الاسم واعلم انّهم لا يشترطون في استخراج التسمية بطريق التعمية حصولها بحركاتها وسكناتها بل اكتفوا بحصول الكلمة من غير ملاحظة لهيئاتها الخاصّة فاذا وقع ذلك في الشعر فيكون عندهم من المحسنات ويسمّى العمل التذييلّ انتهى كلامه على البيتين وقال ايضاً في اسم غزال وهو ما جمع بين تعمية ولغز

امله مطوى الحشا زال ردفه فلا خصر الّا ان تصورته وهما
بنصف اسمه يري القلوب وعكس ما بقى ابدا اذن المحب به صمما

وكتب عليهما ما نصّه فقولي امله اردت به بعمل الترادف غصن ومطوى الحشا انتقاد وزال ردفه قضيت به غرضين ازلت به النوى بعمل الاسقاط الباقي من غصن بعد طى الصاد التى بوسطه واثبته بموضعه بعمل الانتقاد واوضحت ذلك بقولي فلا خصر وان كنت لا احتاج اليه لئلّا يكون في البيت شيء خارج عن التعمية . وقال في اسم امنة ايضاً في العمل التذييلّ

من شقاءي قصته وهو خشف في رضاه عن الملوك ابتذلت
امله منه قد تخلّل خصر وتثنّى عن حبّه ما عدلت

وكتب عليهما ما صورته فقولي امله اردت به عمل التشبيه وتخلّل خصر منه انتقاد واردت بالخصر وسط لفظة منه وتخلّله ان يحل السكون الذي على النون وقولي وتثنى من التثنية لا من الثنى فتمّ الاسم بحركاته وعدده وهو من عمل التذييلّ وذلك ان ياتي بالكلمة بحركاتها وسكناتها وهو من المحسنات كما سبق . وقال ايضاً في اللباس المسمّى بالمنصوريّة قال ابن القاضى في المنتقى

المنصوريّة لبس من ملف لم يكن مستعملاً قبله وهو اوّل من اخترعه واضيف اليه فقيل المنصوريّة فقال فيها وكان لباسه من الملف المسمّى بقلب حجر ما نصّه

وصفوا اشتياقي للحبيب وسرّهم قول الحبيب انا انا فيه
قلبي له حجر فقلت مغالطا للعاذل الموذي انا انا فيه

وكتب عليهما بخطّه الشريف ما صورته في هذين البيتين عدّة من المحسنات غير التعمية منها جناس التورية التركيبيّة المسمّى عندهم بالملفق وحدّه بان يكون كلّ من الركنين مركّباً من كلمتين وهذا هو الفرق بينه وبين المركّب وقلّ من يفرق بينهما ومنها الانسجام ومنها الاستخدام وعهدي بالفقيه ابي الحسن علّي بن منصور الشياظميّ تعرّض الى شرحها بكرّاسة والتعمية في هذين البيتين بالعمل الحسابيّ كثير الّا انّ هذا العمل احسبني ابا عذرته اذ لم اره لغيري ومادة التعمية انا انا فيه قلبي له حجر فقولي انا انا فيه معناه ان تضرب انا في ه وقولي فيه نصّ في الضرب ويخرج من هذا مايتان وستّون عدد حروف هيماني وحقّك فيه وقولي قلبي له حجر بعمل القلب يصير رجح فصار المجموع هيماني وحقّك رجح وفيه التوريه وهيماني وحقك الخارج من هذا الضرب فيه تهكم بالواشي وهو من المحسنات ايضاً اعني قوله له وحقّك وتصلح ان تسمّى هذه التعمية بالافتنان لانّ الافتنان عندهم ان يتفنّن الشاعر فياتي بفنّين متضادّين من فنون الشعر في بيت واحد وهذا وقع التضادّ فيه في كلمة واحدة فظاهر انا انا فيه يضادّ هيماني وحقّك رجح الذي يخرج بطريق الحساب فافهمه ويمكن استخدام تعمية اخرى من قولي للحاسد الموذي انا انا فيه . قال في نفح الطيب والاستخدام الذى اشار اليه هو قوله انا فيه اي في هذا الثوب المسمّى بقلب حجر كما دلّت عليه الحكاية واما المعنى الثاني لقوله انا فيه فظاهره . قال الفشتاليّ وقد رفعت الى جلاله العلّي مرّة رقعة اشكو لفضله

الجلّى بعض مـا اهمّني من امور دنيـاى فبرز لي توقيعه ايّده الله ببيتين من نظمه الباري

يا كاتبـاً اذا كـتب غـرس روضاً ذا فنن
انّ جـوابي للـذي يشكو دناه اردد حزن

قال الفشتاليّ واذا تاملت هذا التوقيع وجدت بيتيه عامرين بمحاسن جمّة امّا اوّلاً فلدلالتها على شرف القائل فانّ كلّ من له ذوق سليم يفهـم انّ هذه نفس ذي عزّة وسلطـان وهمّة وعلوّ شـان من شانه ان يشكى اليه وتعرّض قلاص الامال لديه لمـا تدلّ عليه قرينة انّ جوابي للذي يشكو دناه من العظمة والجلالة والعزّ العريف الاصـالة وامّا ثانياً فلمّا افاده قوله له اردد حزن من مواجهة الشاكى بالمواسات والتسلية وهذا هو الشان في الشكوى الى ذي مروءة فكيف بسبط النبوءة وامّـا ثالثاً فلمـا يدلّ عليه مجموع البيت الثاني من كرم قائله لكلّ من يشكو اليه الدنا كائناً من كان يردّ الحزن عليه ودفع الهـمّ عن ساحته بالمرادف الذى هو درهم الملغز فيه وما كفاه ايّده الله ذلك حتّى اكد الوعد بالاداب الدالّة على تحقيق الحصول على الامنية وتمام البغية الهنية وبيّان الرمز الذى رمز له ايّده الله بشعار التورية المركّبة في الاصل انّ قوله اردد يرادف در حكاية لقول العـامّة وحزن يرادف همّ فحصلت التورية المركّبة في درهم برمّته وفي در وهم مفككين وهذا من السحر الحلال ونكتة الدرهم لا يهتدى لصوغها الّا من صاغ الله جوهره النفيس من اطيب المعادن واشرف العناصر ولنقتصر على هذا القدر من بنـات افكار المنصور ومحاسنه في هذا الباب كثيرة فتتبّعها يردّ العقل وهو حسير وفي هذا الباب دليل تمهّد الرجل وتضلّعه بالفنون رحمة الله عليه

ذكر احتفال المنصور بالمولد النبوي

واعتنائه بالاعياد على السنن السنّي

قال الفشتالي كان ترتيبه في الاحتفال بالمولد النبوي اذا طلعت طلائع ربيع الاوّل صرّف الرقاع الى الفقراء ارباب الذكر على رسم الصوفيّة من المؤذّنين المتعارين فى الاسحار بالاذان فياتون من كلّ جهة ويحشرون اليه من سائر حواضر المغرب ثمّ يامر الشمّاعين بتطريز الشموع واتقان صنعتها فيتبارى بذلك مهرة الشمّاعين كما يتبارى النحل فى نسيج اشكالها لطفاً وادماجاً فيصوغون انواعاً من الشموع التى تحيّر الناظر ولا تزيل زهورها النواضر فاذا كان ليلة المولد النبوي تهيّا لحملها وزفاف كواعبها الحمّالون المحترفون لحمل خدور العرائس عند الزفاف فيتزيّنون ويكون في اجمل شارة واحسن منظر ويجتمع الناس من اطراف المدينة لرويتها فيمكثون حيث يسكن حرّ الظهيرة وتجنح الشمس للغروب فيخرجون بها على رءوسهم كالعذارى يرفلن في حلل الحسن وهى عدد كثير كالنخيل فيتسابق الناس لرويتها وتمتدّ لها الاعناق وتتبرج ذوات الخدور وتتبعها الاطبال والابواق من اصحاب المعارف والملاهى حتّى تستوي على منصّات معدّات لها بالايوان الشريف فتعطف هنالك فاذا طلع الفجر خرج فصلّى بالناس وقعد على اريكته وعليه حلّة البياض شعار الدولة وامامه تلك الشموع المختلفة الالوان من بيض كالدُمَى وحمر حليت في ملابس ارجوان وخضر سندسيّة واستحضر من انواع الحسك والمباخر ما يدهش الناظر ويبهر الجالس ثمّ يدخل الناس افواجاً على طبقاتهم فاذا استقرّ بهم الجلوس تقدّم الواعظ فسرد جملة من فضائل النبيّ صلّى الله عليه وسلم ومعجزاته وذكر مولده وارضاعه وما وقع في ذلك باختصار فاذا فرغ اندفع

القوم في الاشعار المولديّات فاذا فرغوا تقدّم اهل الذكر المزمزمون بكلام الششتريّ وكلام غيره من الصوفيّة ويتخلّل ذلك نوبة المنشدين للبيتين فاذا فرغوا من ذلك كلّه قام الشعراء فيتقدّم قاضي الجماعة بلبل منابر الجمع والاعياد قاسم بن علّي الشاطبيّ فينشد قصيدة يستفتحها بالتغزّل والنسيب فاذا تمّ يتخلّص لمدح النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ثمّ يختم بمدح المنصور والدعاء له ولولي عهده فاذا قضى نشيده تقدّم الامام المفتي ابو مالك عبد الواحد بن احمد الشريف الفلاليّ فينشد قصيدته على ذلك المنوال فاذا فرغ تلاه الوزير ابو الحسن علّي بن منصور الشياظميّ فاذا فرغ تلاه الكاتب ابو فارس عبد العزيز بن محمّد بن ابراهيم الفشتاليّ ويليه الكاتب ابو عبد الله محمّد بن علّي الفشتاليّ ويليه الاديب ابو عبد الله محمّد بن علّي الهوزاليّ المعروف بالنابغة ويليه الفقيه الاديب ابو الحسن علّي بن احمد المسفيويّ فاذا طوى بساط القصائد نشر خوان الاطعمة والموائد فيبدا بالاعيان على مراتبهم ثمّ يؤذن للمسلمين فيدخلون جملة فاذا انقضت أيّام المولد الشريف برزت صلات الشعراء على اقدارهم هكذا كان دابه في جميع الموالد ولا يحصى ما يفرغ فيه من انواع الاحسان على الناس انتهى باختصار من مناهل الصفا وقال صاحب النفحة المسكيّة في السفارة التركيّة حضرت المولد الشريف بعد القفول من بلاد الترك قال فاستدعى المنصور الناس لايوانه السعيد واستدخلهم لقصره البديع المحتوي على قباب عالية وقد مدّ فيها ومهد من فرش الحرير وصفّة النمارق وتدلّت الاستار والكلل والحجال المخوضة بالذهب على كل قبّة وحناية كان سرير ودار على الحيطان حيطيّات الحرير التي هي كازهار الخمائل ما رائت قط في عهد الاوائل مرفوعة الجوانب على قواعد واساطين من رخام مجزع مطلية الرءوس بالذهب الذائب مفروش جلّها بالمرمر الابيض المخطّط بالسواد يتخلّل ذلك ماء عذب فيدخل الناس على طبقاتهم واخذ كلّ منهم مرتبتهم من قضاة وعلماء وصلحاء ووزراء وقوّاد وكتّاب واضياف واجناد يتخيّل لكلّ واحد

منهم انّه في جنّة النعيم والسلطان جالس في افخر ملابسه تعلوه الهيبة والوقار وترمقه الاعين والابصار بالتعظيم والاكبار ويجلس من عادته الجلوس ويقف على راس السلطان الوصفان والعلوج وعليهم الاقبية والمناطق المدوّرة المشدودة المذهّبة والحزم المذهّبة ممّا يدهش الناظر وركزت امامهم الشموع واذن لعامّة الناس فدخلوا من اصناف القبائل على اجناسها من الاجناد والطلبة وسكنت بعد حين الجلبة واتى بانواع الطعام في القصاع المالقيّة والبلنسيّة المذهّبة والاواني التركيّة والهنديّة واتى بالطوس والابارق وصبّ الماء على ايدي الناس ونصب مباخر العنبر والعود وابرزت صحائف الفضّة والذهب واغصان الريحان الغضّ فرشّ بها من ماء الورد والزهر ما يبقى منه الاثر وتكلّم المنشدون واحسن لهم الامير ثمّ ختموا المجلس بالدعاء للسلطان واذا كان يوم السابع يكون ترتيب ابدع من الاوّل وهذه كانت سيرته دائماً . وهكذا سيرته في شهور رمضان عند ختم صحيح البخاريّ وذلك انّه اذا دخل رمضان سرد القاضي واعيان الفقهاء كلّ يوم سفراً من صحيح البخاريّ وهي عندهم مجزاة على خمس وثلاثين سفراً في كلّ يوم سفر الى يوم العيد فاذا كان يوم سابع العيد ختم فيه البخاريّ وتهيّا له السلطان احسن تهيئة الّا انّ العادة الجارية عندهم في ذلك انّ القاضي يتولّى السرد بنفسه يسرد نحو الورقتين من اوّل السفر ويتفاوض مع الحاضرين في المسائل ويلقى من ظهر له بحث او توجيه ما ظهر له ولا يزالون في المذاكرة فاذا تعلّى النهار ختم المجلس وذهب القاضي بالسفر فيكمله سرداً بداره ومن الغد يسرد سفراً اخر وهكذا والسلطان في جميع ذلك جالس قريب من حمى الحلقة قد عيّن لجلوسه موضع قال الفشتاليّ وكان يعطى اموالاً جزيلة عند ختم القرءان في رمضان لذوي الحاجات ويقيم مهرجاناً عظيماً يوم عاشوراء لختان اولاد الضعفاء وكلّ من ختن منهم اعطيت لهم اذرع من الكتان الحسن وعدد من الدراهم وسهم من اللحم يعمر باقامة هذه السنّة بياض ذلك اليوم ويشمل الاحسان من ذلك ممّا لا تحصى ويعمّ الصنيع اولى الحاجة فيحتقب

امير المؤمنين ايّده الله من قتوبة هذا اليوم المبارك المشهود بما يثقل الله به موازين اعمال برّه يوم الجزاء الموعود له وقد آن لي ان اذكر طرفاً من القصائد التى كان يمدح بها في الموالد الشريفة تتميماً للغرض قال الامام القاضى ابو القاسم بن علىّ الشاطبىّ

ما بال طيفك لا يزال اماما ... وبمنحنى الاحشا ضربت خياما
ايعيش فيك عواذلي بسهومهم ... وامـوت فيك صبابة وغراما
وتبيح نهرك سائلاً من ادمعى ... او ليس نهر السائلين حراما
ما ذقت ماء لماك في سنة الكرا ... الا انتهت فكانّ لي احلاما
عرّض اذا حدّثت من باب الحمى ... فحديث قلبي بالاجارع هاما
اروى حديث الرقمتين مسلسلا ... عن دمع باكية الغمام سجاما
وتلقّ من حيث النسيم تحيـة ... اضحى الهوى برداً بها وسلاما
يا حيرة العالمين دعوة ضايق ... للذيذ عيشى بالقضا لو داما
فخذوا بجرعاء الحمى قلبي فقد ... الف الاقامة بالحما فاقاما
وخذوا بثاري اهل نجد انّهم ... سلبوا الفؤاد وادنفوا الاجساما
في كلّ غرب دموع عيني مشرق ... لكواكب فيها اثرن ظلاما
صليت بنار الشوق ثم رنت الى ... انسانها في لجّة قد عاما
وتسلسلت عبراتها شوقاً لمن ... وقفت عليه صلاتنا وسلاما
خير الانام محمّد الهادي الذي ... اردى الضلال وجبّ منه سناما
كنز العوالم سرّ طينة ادم ... ولحفظ ذاك السرّ جاء ختاما
واجلّ ارسال الانام ومن به ... قد لاذ يونس حين خاض ظلاما
وتقاصرت عن فرده اعدادهم ... فاذا تقدّم في الحساب اماما
اسرى الى السبع العلا فاستقبلت ... قدس الملائك وفده اعظاما
في ليلة غصّت باملاك السما ... فتصير خلف ركابه وامـاما

يا خير من بهر المعاند شانه عجزاً فغصّ بريقه الحساما
اعيا جلالك ان يحيط بوصفه وصف البليغ واخرس الاقلاما
صلّى عليه الله ما زان الحيا روضا ففتّح زهره الاكماما
ما لذّة في غير مدح مخلّص الّا بمدحى من نيبك اماما
خير الورى وامامها المنصور من في ظلّ دولته الانام اقاما
اصفى على الارضين ظلّ مهابة فحمى بها حامى العباد وساما
وسمى على الدنيا عقاب تنوفة فانفضّ يفترس الاسود جهاما
قل للملوك هبوا لمالككم فدى وخذوا لانفسكم لديه ذماما
هذا الذي يحيي البلاد بعدله ويعيدها نشراً وكل ركاما
هذا الذى وعد الالاه بانّه يطوي البلاد ويفتح الاهراما
يا مشبه المهدىّ في ارائه عزماً وفي عزماته اقداما
انت الذى ببنيه ابناء العلا ارسى البلاد ووهّد الاسلاما
فكانّهم من حولك الاشبال في غاب الوشيج تبوّأت اجاما
وامينها المامون هضب سمائها علم اقام على الهضاب سناما
واجلّ مضطلع تخيّره الورى بعد الامام فقدّموه اماما
واتاه احمد عهد امّة احمد فوفي فكان لرعيه المعتاما
لا يعدونّ النصر سيفك انّه سيف يحوط الدين والاسلاما
خذها ينمّ على العبيد مديحها ويفضّ عن مسك الختام ختاما

وقال الامام العالم العلاّمة الفقيه الاديب المحصل النجيب مفتى الحضرة المرّاكشيّة ابو مالك عبد الواحد بن احمد الشريف الفلاليّ رحمه الله تعالى ورضى عنه

ارقت وشاقتنى البروق اللوامع وذكر خليط هيّجته المرابع
مرابع فيهنّ الدوامس والسما تراق من الاشواق فيها المدامع

كأنْ لم تكن من قبل قدماً واهلا ... اذا السلك منظوم وشملي جامع
تذكّرني عهدي الاجارع واللوى ... واين اللوى منّي واين الاجارع
سحبنا بها ذيل الصبابة برهة ... وجفن الردى عنّا وحاشاك هاجع
وقفت بها بالسدل والليل دامس ... انازعها الشكوى بها وتنازع
اسائلها عن جيرة بان حيّهم ... وضمّت هواهم بعد ذاك الاضالع
فهل قدّموا نحو العقيق صدورهم ... ولاح لهم برق من الجوّ لامع
يخبّر عن دار الرسول وقربها ... عراص بها للوحي فاضت ينابع
يا دار بها على الحمى سيّد الورى ... وهبّت على الاشراك منها زعازع
عليك صلاة الله يا خير مرسل ... ويا خير من تثنى عليه الاصابع
فلولاك هذا الكون ما زال معدما ... وانت الذي يرجوه عاص وطائع
لك الفخر في الدارين والموقف الذي ... لاهواله كلّ النبيين جازع
فادمهم والكلّ تحت لوائكم ... وليس لهم والله غيرك شافع
فجازاك ربّ العرش ما انت اهله ... جزاء به يشجى المناوي المخادع
وجازى اماماً قد دعته اليكم ... اصول واباء كرام فوارع
سميّك وابن السبط حقّاً ومن له ... عوارف في اعناقنا وصنائع
فدم للعلا يا ابن الخلائق مفردا ... اليك اشتراؤها وغيرك بائع
ودام وليّ العهد بعدك صارما ... يخبّ الى نيل العلا ويسارع
هو الامن المامون من كلّ فتنة ... لفيض الندا من راحتيه تدافع
ففيك اقول والنصوص شواهد ... احاديث صحّت ليس فيها منازع
بكم راس هذا القرن جدّد دينا ... وفاضت بحور للعلوم دوافع

قال مؤلّفه وما اشار اليه في هذين البيتين من انّه هو المجدّد للدين في راس القرن العاشر نحوه تقدّم في صدر الكتاب عن الشيخ القصّار نظماً والحديث المشار اليه في ذلك هو ما اخرجه ..... انّ الله يبعث على راس كلّ قرن

من يجدّد لهذه الامّة امر دينها وحمله بعض العلمـاء على انّه من السلاطين وقيل من الاوليـاء وقيل من العلماء وكنى بالشيخ القصّار والامام سيّدي عبد الواحد بن احمد الشريف الفلاليّ دليلاً على جلالة المنصور والاّ فدين الرجلين يمنعهما من التغالي والافراط في المدح بمـا لا يصحّ في الممدوح نعم الوصف بالعدل والشجاعة مثلاً متوسّع فيهمـا بين اهل الشعر وامّا مثل هذا لا يطلقه الاّ لمن علم بصحّة مستنده والله اعلم بحقيقة الحال وانظر كتاب ازهار الرياض في اخبار مناقب القاضي عياض للشيخ الحافظ ابي العبّاس احمد بن محمّد المقّري فقد شفى الغليل في مسالة المجدّد وبسط فيها القول رحمه الله وقال الوزير ابو الحسن علّي بن منصور الشياظمّي المرابطّي ايضا ما نصّه

من بعد اهل قبا واهل كداء ... شوقي يزيد ومثل ذلك عزاء
ولي الشفا في قربهم وهم جلا ... ما في الخواطر من صدى وصداء
لاكنّه بعد المزار فاين من ... تلك المعـاهد سـاكن الحمراء
بانوا وهاج الشوق ذكر ربوعهم ... ذات السنـا والرند والصبـاء
وشذا بهم حادي الركاب فكاد ان ... ينزع القلوب جسومهـا بفضاء
يا سعد لو انّ الزمان مساعدى ... ويجيب مع ذي البعد بعض النداء
لركبت حرفاً كالهلال منـاجزا ... للهمز الاّ في المنادي النـاءي
ولجبت اجيـاب الفلا وطويتها ... طيّ العلا بنجيبـة قـوداء
تختاض في جوّ الظلام كانّهـا ... سرّ توجّ في ضمير حجـاء
وتخال في لجج السراب سفينة ... تجري القلاع بها بريح رجاء
فهل انزلنّ بها المحصّب من منى ... وازور بعد معاهـد الزوراء
فاحطّ عنها الرحـل ثمّ مخيّما ... في ظلّ احمد بغيتي ومنـاءي
وامرّغ الخـدّين ملتـثما ثرا ... وطئتـه رجلا خاتم الانبيـاء
محى الهدى ماحى الضلالة والردى ... بالبيض والخطيئـة السمـراء

صلّى عليه الله ما سمح السخا ... لوماً وما اجلى الدجا ابن ذكاء
وعلى صحابته الكرام واله ... اكرم بهم من سادة فضلاء
واكرم بوارث مجده وعلائه ... سبط الرسالة غرّة الابناء
خير الخلافة احمد المنصور من ... حاز الكمال وشطر كلّ علاء
الصارم الهنديّ في يمنى الهدى ... الكوكب الوقّاد في الظلماء
يا ايّها الملك الذي بسيوفه ... حاط الهدى وبرايه الوصاء
ذخر الالاء لك المفتوح وصانها ... كالزهر في الاكمام والاوعاء
لا بدّ من فتح يروقك واضح ... كالصبح بذّر في البخار كداء
وستملك الحرم الشريف ويتمى ... للوائك المنصور دون مراء
وترى الجهات وقد اتت منقادة ... بظبا بنيك السادة النجباء
وتقرّ عينك بالخلافة منهم ... وزر البريّة غرّة الامراء
بمحمّد المامون خير مَن ارتقى ... درج الكمال ودبّ للعلياء
فرع سيحكى اصله ولقد حكى ... بمقاصد قد سدّدت لدماء

وقال الكاتب الاديب ابو فارس عبد العزيز بن محمّد بن ابراهيم الفشتاليّ رحمه الله

هم سلبوني الصبر والصبر من شان ... وهم حرّموا من لذّة الغمض اجفان
وهم اخفروا في مهجتي ذمم الهوى ... فلم يبته عن سفكها حتى الجفان
لئن انزعوا من قهوة اللين اكؤسي ... فشوقهم اضحى سميري وندمان
وان غدرتني بالعداء حمولهم ... كفى انّ قلبي جاهداً اثر اظعان
قف العيش واسئل ربعهم ايّة مضوا ... أللجزع ساروا مدلجين ام البان
وهل باكروا بالسفح من جانب اللوى ... ملاعب آرام هناك وغزلان
واين انتقلوا هل بهضب تهامة ... اناخوا المطايا ام على كثب نعمان

وهل سال في بطن المسيل تشوّقا نفوس ترامت للحمى قبل جثمان
واذ زجروها بالحداء فهل ثنا ازمّتها الحادي الى شعب بدان
وهل عرسوا بدير عبدون ام سروا يؤمّ بهم رهبانهم دير نجران
سروا والدجا صبغ المطارف وانثنى باحداجهم شتّى صفات والوان
وادلج في الاسحار بيض قبابهم فلحى نجوماً في معارج كثبان
لك الله من ركب يرى الارض خطوة اذا زمّها بدر نواعم ابدان
ارح بالمطايا قد تمشّى بها الهوى تمشّى الحميّا في مفاصل نشوان
ويمّم بها الوادي المقدّس بالحما به الماء صرّا والكلا نبت سعدان
واهدى حلول الحجر منه تحيّة تفاوح عرفا ذاك الرند والبان
لقد قفحتْ من شيح يثرب نفحة فهاجت مع الاسحار شوقي واشجان
وفتّت منها الشوق في القرّ منسكة سحبت بها في ارض دارى اروان
واذكرني نجداً وطيب عراره نسيم الصبا من نحو طيبة حيّان
احنّ الى تلك المعاهد انّها معاهد راحتى وروحى وريحان
واهفو مع الاشواق للوطن الذي به صحّ لي انسى الهوى وسلوان
واصبو الى اعلام مكّة شيقا اذا لاح برق من تهامى وتهلان
أُهيل الحما دينى على الزهر زورة احثّ بها شوقاً لكم عزمى الوان
متى يشتفى جفنى القريح بنظرة يزجّ بها في نوركم عين انسان
ومن لي بان يدنو لقاكم تعطّفا ودهريَ عنّى دائما عطفه ثان
سقى عهدكم بالخيف عهداً تمدّه سوافح دمع من جفون هتان
وانعم في شطّ العقيق اراكه بافيائها ظلّ المنى والهوى دان
احيّ ربوعاً بين مروة والصفا تحيّة مشتاق بها الدهر حيان
ربوعاً بها تتلو الملائكة العلا افانين وحْى بين ذكر وقرءان
واوّل ارض باكرت عرصاتها ورشّت بطاحها سحائب ايمان
وعرّس فيها للنبوة موكب هو البحر طامّ فوق هضب وغيطان

وادّى بهـا الروح الامين رسـالة ... افادت بهـا البشرى مدائح عنوان
هنالك فضّ ختمهـا اشرف الورى ... وفخر نزار من معدّ بن عدنان
محمّد خـير العـالمـين باسرهـا ... وسيّد اهل الارض من انس وجان
ومـن بشّرت ببعثـه قبـل كونه ... نوامس كهّـان واحبـار رهبـان
ورحمة هذا الكون لولاه ما سمت ... سمـاء ولا غاضت طوامى طوفان
ولا زخرفت من جنّـة الخلد اربع ... تسبّح فيهـا ادم حور وولدان
ولا طلعت شمس الهدى عن جنّة ... تحمّم من ديجورهـا ليل كفـران
ولا احـدقت بالمـؤمنين شفـاعة ... يذود بهـا عـنهم زبانيّ نصران
له معجزات اخرست كلّ جاحد ... وسلّت عن المرتاب صارم برهـان
له شقّ قرص البدر شقّين وارتوى ... بمـاء همى من كفّه كلّ ظمـان
وانطقـت الاصنـام نطقـاً تبرّات ... الى الله فيه من زخاريف ميّـان
دعى صرحة عجبـاً فـلبّت واقبلت ... تجرّ ذيول الزهر مـا بين افنـان
وضاءت قصور الشام من نوره الذي ... على كلّ افق نازل القطر او دان
وقـد نهج الانوا بدعـوته الـتى ... كست اوجه الغبراء نهجة نسيـان
وانّ كتـاب الله اعـظم ايـة ... بها افتضح الميّان وابتاس الشـان
وعدّ عـلى شـاوٍ البـليغ بيـانه ... فهيهات منه سجع قيس وسحبـان
نبيّ الهدى من اطلع الحقّ انجمـا ... محى نورهـا اشراق افك وبهتـان
لعـزّتهـا ذلّ الاكاسرة الاولى ... هم سلبوا تيجـانها ال سـاسـان
واحـرز للدين الحـنفيّ بالـظبـا ... تراث مـلوك الصين من عهد يونان
ونقّع من سمّ النقـا السمر قيصرا ... فجرّعـه منـه مجـاجـة ثعبـان
واضحت ربوع الشرك والكفر بلقعا ... يناغى الصدا فيهنّ هاتف شيطـان
واصبحت السمحـا تروق نضـارة ... ووجه الهدى بادى الصباحة لدّان
ايا خير اهل الارض بيتاً ومحتدا ... واكـرم كلّ الخـلق عجم وعربان
فمن للقـوافي ان تحيـط بوصفكم ... ولو ساجلت سبقـاً مدائح حسّـان

اليك بعثناها اماني اجذبت ... لتسقى بمزن من ايديك هتّان
اجرني اذا ابدى الحساب جرائمى ... واثقلت الاوزان كفّة ميزان
فانت الذي لولا رسائل عزّه ... لما فتحت ابواب عفو وغفران
عليك سلام الله ما هبّت الصبا ... وماست على كثبانها ملد قضبان
وحمّل في جيب الجنوب تحيّة ... يفوح بمسراها شذا كلّ تربان
الى العمرَينْ صاحبيك كليهما ... وتلوهما في الفضل صهرك عثمان
وحيّ عليّاً عرفها واريحها ... ووالى على سبطيك اوفر رضوان
اليك رسول الله صمّمت عزمة ... اذا ازمعت فالشمل والغرب سيّان
وخاطبت منّى القلب وهو مقلّب ... على جمرة الاشواق فيك فلبّان
فياليت شعري هل ازمّ قلائصى ... اليك بدار او اقلقل كيزان
واطوى اديم الارض نحوك راحلا ... نواصى المهاري في صحاصح قيعان
يدنّحها فرط الحنين الى الحما ... اذا غرد الحادي بهنّ وغنّان
وهل تمحوَنْ عنّى خطايا اقترفتها ... خطى لي في تلك البقاع واوطان
وما ذا عسى يثنى عناني وانّ لي ... بآلك جاهاً صفوة العزّ اوطان
اذا قرّ عن زوارك الباس والغنى ... فجود ابنك المنصور احمد اغنان
عمادي الذي اوطا السماكين اخمصا ... واوفى على السبع الطباق فادنان
متوّج املاك الزمان وان سطا ... احلّ السيوف في معاقد تيجان
وقار اسود الغاب بالصيد مثلها ... اذا اضطرب الخطاء من فوق خزران
هزَبْر اذا زار البلاد زئيره ... تضاءل في اجامها اسد خفّان
وان اطلعت غيم الغثام جيوشه ... وارزم في مركوبه رعد نيران
صبين على ارض العداة صواعقا ... اشلن عليهم بحر خسف ورجفان
كتائب لوعلون رضوى لصدّعت ... صفاه الجياد الجرد تعدو بعقبان
عديد الحصا من كلّ اروع معلم ... وكلّ كمى بالردينىّ طعّان
اذا جنّ ليل الحرب منهم على العدا ... هدتهم الى اوداجها شهب خرصان

من اللاءى جرّعن العدا غصص الردا ... وعفّرن في وجه الثرا وجه بستيان
وفتّحن اقطار البلاد فاصبحت ... تودّى الخراج الجزل املاك سودان
امام البرايا من علىّ نجاره ... ومن عترة سادوا الورى ال زيدان
دعائم ايمان واركان سودد ... ذوو همم قد عرّست فوق كيوان
هم العلويّون الذين وجوههم ... بدور اذا ما حلّكت شهب ازمان
وهم اهل بيت شيّد الله سمكه ... على هضبة العلياء ثابت اركان
وفيهم فشا الذكر الحكيم وصرّحت ... بفضلهم ايات ذكر وفرقان
فروع ابن عمّ المصطفى ووصيّه ... فناهيك من فخرين قرب وقربان
ودوحة مجد معشب الروض بالعلا ... يجود بامسوال الرسالة ريّان
بمجدهم الاعلى الصريح تشرّفت ... معدّ على العرباء عاد وقحطان
اولائك فخرى ان فخرت على الورى ... ونافس بيتى في الولا بيت سلمان
اذا اقتسم المدّاح فضل فخارهم ... فقسمى بالمنصور ظاهر رجحان
امام له في جبهة الدهر مبسم ... ومن عزّه في مفرق الملك تاجان
سما فوق هامات النجوم بهمّة ... يحوم بها فوق السماوات نسران
واطلع في افق المعالي خلافة ... عليها وشاح من علاه وسمطان
اذا ما احتبى فوق الاسرّة وارتدى ... على كبرياء الملك نخوة سلطان
توسّمت لقمان الحجا وهُو ناطق ... وشاهدت كسرى العدل في صدر ايوان
وان هزّه حرّ الثناء تدفّقت ... انامله عرفاً تدفّق خلجان
ايا ناظر الاسلام شم بارق المنا ... وباكر لروض في درى المجد قينان
قضى الله في عليائك ان تملك الدنيا ... وتفتحها ما بين سوس وسودان
وانّك تطوي الارض غير مدافع ... فمن ارض سودان الى ارض بغدان
وتملاها عدلاً يدقّ لواؤه ... على الحرمين او على راس غمدان
فكم هنات ارض العراق بك العلا ... ووافت بك البشرى لاطرف عمان
فلو شارفت شرق البلاد سيوفكم ... اتاك استلابا تاج كسرى وخاقان

ولو نشر الامـلاك دهرك اصبحت عيالاً على علياء ابنـاء مروان
وشـايعك السفّاح يقتـاد طائعـا برايته السوداء ارض خراسـان
فـا المجد الاّ مـا رفعت سمـاكه على العمد السمر الطوال ومرّان
وهاتيك ابكار القـوافي جلوتهـا يغـار لها الحور في دار رضوان
اتتك امـير المـومنبـين كانّهـا لطـائم مسك او خمـائل بستان
تعـاظمن حسنـا ان يقـال شبيهها فـرائد درّ او قـلائد عقـيان
فلا زلت للدنيـا تحوط جهـاتهـا ولا ـدين تحميـه بملك سليمان
ولا زلت بالنصر العـزيز مـوزّرا تقـاد لك الاملاك في زيّ عبدان

قال في نفح الطيب اخبرني ناظمها انّه اراد بقوله ونافس بيتي في الولا بيت سلمان الذي منها لسان الدين ابن الخطيب اشارة الى ولاء الكتابة والخلافة كما كان لسان الدين رحمه الله كذلك وفيه مع ذلك تورية بسلمان الفـارسيّ رضى الله عنه وهذه القصيدة على طولها من غرر القصائد ولذلك لم يذكر في المنتقى من الامداح المنصوريّة غيرهـا وقد مدحها في نفح الطيب واثنى عليها جدًّا وتتبّع ما قيل في هذا الاحتفال واقامة هذا المولد العديم المثال من الامداح يفضى الى الطول وفي هذا القدر كفاية والله الموفّق

ذكر الخبر عن سيرة المنصور

وعيون من انباء سياسته

كان المنصور رحمه الله حسن السياسة حازماً يقظاناً مشاوراً في قوام الامور وقد اتّخذ يوم الاربعاء للمشاورة وسمّاه يوم الديوان تجتمع فيه وجوه الدولة واعيانها ويتطارحون فيه وجوه الراي فيما ينوب من جلائل الامور وعظائم

النوازل وهناك تظهر شكاية من لم يجد سبيلاً للوصول للامير وكان المنصور على ما هو عليه من ضخامة الملك وسعة الخراج يوظّف على الرعيّة اموالاً طايلة يلزمهم بادائها وزاد الامر على ما كان عليه الحال في عهد ابيه حسبما سلف ذلك مستوفياً في ترجمة ابيه وكانت الرعيّة تشتكي منه بذلك ونالها اجحاف منه ومن عمّاله وكان غير متوقّف في الدماء ولا هيّاب للوقيعة في ذلك وتتبّع ما وقع في ذلك يناقض غرضنا في هذا الكتاب من الاغضاء عن العورات والستر على الفضائح وقد ألمعنا لك بما يكون دالاً على ما وراء وذكر ابو زيد في الفوائد ما صورته عدى محمّد الكبير خال المنصور على رجل بدرعة في ضيعة له فشكاه للمنصور فقال له كم تساوي هذه الضيعة قال سبعماية اوقيّة قال له خذها وقل لخالي الموعد بيني وبينك الموقف الذي لا اكون انا فيه سلطاناً ولا انت خال السلطان فرجع صاحب الضيعة حتّى ادّى له كلامه فامسك راسه بيده ساعة ثمّ قال له الحق ضيعتك وغرم له كلّ ما اكل منها انتهى بنصّه ويحكى انّ الفقيه قاضى الجماعة بفاس ابا مالك عبد الواحد الحميدي رحمه الله مرّ ذات يوم مع فقهاء فاس واعيانها لمرّاكش بقصد العيد مع المنصور كما هى العادة فمرّوا في طريقهم على سلسلة فيها رجال ونساء وفيهم امراة اخذها الطلق وهى في كرب المخاض فراوا من ذلك امراً يحزن رائيه ويهمّ ناظره فبقى ذلك في خاطر القاضى فلمّا جلس مع المنصور القى له ذلك واظهر منه الشكاية فسكت عن جوابه المنصور وهجره على ذلك ايّاماً فلمّا فهم القاضى غضب المنصور تلطّف له في القول واظهر التوبة ممّا صدر منه وعدّه بادرة فقال له المنصور لولا ما رايتَ ما امكنك ان تجيء مع اصحابك عشرة ايّام في امنّ ودعة فانّ اهل الغرب مجانين مارستانهم هى المحن من السلاسل والاغلال وكان للقاضى المذكور ادلال على المنصور لانّه شيخه فكان المنصور يتحمّل منه لمكان الشيخوخة ولقد وفد عليه مرّة مع الطلبة في بعض المواسم فلمّا انصرفوا من الحضرة جمعتهم الطريق باربابب الموسقى واصحاب الاغاني من اهل فاس وقد كانوا وفدوا ايضاً معهم على سبيل

العادة فاخرج بعضهم شبابة من الابريز مرصّعة اعطاها له المنصور وبعضهم قال اعطاني كذا وقال الاخر اجازني بكذا ممّا لم يعط مثله للقاضي وشيعته من الطلبة فقال القاضي ان بلغت فاساً لاردّنّ اولادي لصنعة الموسقى فانّ صنعة العلم كاسدة ولولا انّ الموسقى هو العلم العزيز ما رجعنا مخفّفين ورجع الآليّ بشبابة الابريز فنقل كلامه هذا للمنصور فلدعه عليه من الملام بيسير وحكى عن بعض الطلبة انّه كان يوماً بين يدي المنصور فانشد الطالب المذكور البيتين المشهورين

زماننا كاهله واهله كما ترى

وخفض زماننا عند الانشاد للبيتين فقال له المنصور كيف خفضت الزمان فقال له الطالب والله لاخفضنّه كما خفضني فاعجب ذلك المنصور وعدّه من حسن الاعتذار وذكر انّ بعض عمّال المنصور عدى على امراة من دكّالة فاخذ لها مالاً فقدمت المراة لمرّاكش لتشكو له حيف عامله فلمّا شكت عليه لم يشكها ولا كشف ظلامتها فخرجت لاولادها وقالت لهم انصرفوا فانّي كنت اظنّ انّ راس العين صافية والان حيث وجدتها مكدّرة منها تكدّرت مصارفها واخبار المنصور في هذا المعنى كثيرة

ذكر ما انشاه المنصور من المثاثر وما وقع في ايّامه من الاحداث والكوائن

قال في مناهل الصفا للمنصور مصانع اخترعها ومثاثر خلّفها منها المعقلان اللذان انشاها بفاس احدهما خارج باب الحيسة والاخر قبالة باب الفتوح وهذان المعقلان يعرفان عند العامّة بالبساتين احدهما بستيون وهما من الاتقان

بحيث لا يعرف قدرها الاّ من وقف عليهما ومن ذلك الحصنان اللذان بناهما بثغر العرائش احدهما يسمّى حصن الفتح وهما ايضاً في نهاية الوثاق والحسن ومن ذلك معاصر السكّر فانّه احدثها بمرّاكش وبلاد حاحة وبلاد شفشاوة قال الفشتالي وكان ابتدا ذلك والده ابو عبد الله محمّد الشيخ المهديّ فكثر السكّر في ايّامه بالبلاد المغربيّة حتّى لم تكن له قيمة وقد تقدّم انّه اشترى الرخام من عند النصارى بالسكّر وذكر في المنتقى المقصور انّ المنصور في سنة ستّ وتسعين وتسعماية بعث الحصّة العظيمة لجامع القرويّين مع كرسيّ من المرمر توضع عليه وزنهما معاً ماية قنطار وهذه الحصّة هي التي تحت منار الجامع المذكور وقال ابن القاضي مؤلّف المنتقى فيما ينقش برقبتها

امام دين الهدى المنصور شيّدني ... بحر المكارم من ابناء عدنان
حزت المفاخر بالمنصور اجمعها ... ومن علاء مقام المجد ارسان
من جاء يشكو الظما يوماً وقبّلني ... اغناه ما قد همى من صوب احفان
لاتنكرنّ وجود الدمع من فرح ... فالعين تدمع من افراط سلوان
واشرب هنيئاً من السلسال لاحرج ... معين دمع جرى من فيض خلجان
فخر السلاطين من ابناء فاطمة ... من صيته شاع في اطراف عمان
وقد جرت مقلتي حكّت سحائبها ... كفّ الخليفة من ابناء زيدان
لا زال للدين والدنيا يسوسهما ... ما هيّجت عاشقاً ورق بإفنان
انشاني زمن التاريخ وافقه ... للدين والاجر بحر الجود سوّان

ومن علم الهندسة فائدة جيّدة وهي ان قيل بايّ شيء يتوصّل الى معرفة وزن هذه الحصّة مع كرسيّها وانّ فيهما ماية قنطار مع انّ الوزن لا يمكن في ذلك غالباً فالجواب انّ كيفيّة التوصّل لذلك ان توضع الحصّة في افلوكة او سفينة مثلاً ويرشم على الموضع الذي بلغه الماء من جرم تلك الافلوكة او السفينة

حيث وضعت فيها الخصّة مثلا ثم تخرج الخصّة وتملا السفينة او الافلوكة بحجارة او بتراب او رمل حتى توضع في الماء ويبلغ الماء موضع الرشم فتخرج تلك الحجارة او التراب اوالرمل ويوزن شيأً فشيأً فيتوصل بذلك الى معرفة مقدار وزن الشيء الثقيل هكذا ذكره ابن القاضي في جذوة الاقتباس اظنّه حيث تكلّم على صهريج الرخام الذي بالمدرسة المصباحيّة ورايت بها بخطّ شيخ شيوخنا العلاّمة المحقّق ابي زيد سيّدي عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسيّ رحمه الله ما معناه هذا اذا كان ما وضع في السفينة او الافلوكة مثلاً شيأً ثقيلاً كالحجارة مثلاً واما لو وضع فيها شيء خفيف كالشعر او الصوف فلا يتوصّل الى المقصود بذلك والله اعلم وفي عام سبعة وثمانين وتسعماية وقع غلاء عظيم حتى عرّف ذلك العام بعام البقول ووقع سعال عظيم اصاب الناس عامّة في بعض فصول ذلك العام فلا يزال الانسان يسعل الى ان تقبض روحه ولهذا سمّي العام عام الكحيحة وفي ايّام ابي مروان عبد المالك ظهر الكوكب ذو الذنب الكبير في برج العقرب وبقي يسيراً ثم ذهب وظهر بعده كوكب اخر ذو ذنب اصغر من الاوّل وظهر في ايام السلطان ابي محمّد عبد الله الغالب في السماء نجمة كبيرة لم تكن معهودة ثم ظهرت في ايّام ولده محمّد بن عبد الله حمرة في الجوّ بناحية شرقيّة تبعتها في الارض الاجناد التي جاء بها ابو مروان من الجزائر كما انّه وقع اثر ظهور ذي الذنب جيوش النصارى التي جرّها محمّد بن عبد الله لوادي المخازن وفي ثاني ذي القعدة عام سبعة وتسعين وتسعماية اخلا النصارى دمّرهم الله اصيلا وحملهم على ذلك الرعب والخوف من المنصور ففرّوا بانفسهم واولادهم وحمل ما خفّ من اموالهم وفي ذلك يقول ابو العبّاس احمد بن القاضيّ رحمه الله

يا ايّها المنصور ابشر بالعلا ... فالله بلّغ في العدا المامولا
انصاركم سيفاً لحتف عداته ... وبكُمْ غدا سيف الردا مفلولا

وهزمتم الشرك المتين بعزكم ... من غير سيف قد يرى مسلولا
واذبت اكباد الخبيث بهمة ... وفتحتم دار العدا اصيلا
اكرم به من مالك بل صالح ... اضحى لبارود العداة خليلا
لا زال في افق العلا شمساً وفي ... عين العلاء يشاكل التكحيلا

واشار بقوله الى بارود العداة خليلا لما عمله النصارى لمّا ارادوا الخروج من اصيلا حفروا تحت قصبتها حفيراً وملئوه بارودا واوقدوا فتيلة تبلغه عند مقدار دخول المسلمين فنجاهم الله من الوبال وكفى الله المؤمنين القتال وفي عام واحد والف اتى بالفيلة من بلاد السودان للمنصور وكان يوم دخولها لمرّاكش يوماً مشهوداً برز فيه كل من في المدينة لرؤيتها من رجال ونساء وصبية وشيوخ ثمّ في رمضان عام سبعة والف حملت لفاس ايضاً قال بعضهم وبسبب دخول هذه الفيلة للمغرب ظهرت هذه العشبة الحبيثة المسمّاة تبغة لانّ السودان الذين قدموا يسوقون الفيلة قدموا بها يشربونها ويزعمون انّ فيها منافع فشاعت عنهم في درعة ومرّاكش وغيرها من بقاع المغرب وتعارضت فيها فتاوي العلماء رضوان الله عليهم من لدن ظهورها فمن قائل بالتحريم ومن قائل بالتحليل ومتوقف والعلم فيها عند الله تعالى وفي عام ثلاثة وتسعين ثار رجل يقال له الحاجّ قرقوش بجبال غمارة والهبط وتسمّى بامير المؤمنين وكان في بدء امره حائكاً فتلبّس بالزهد والصلاح فاخذ وقتل وحمل راسه لمرّاكش وفي ذي القعدة من عام ستّة وتسعين ارتحل المنصور فبينما هو في الطريق اذ وافته البشرى بالفتك بنصارى سبتة وانّ زعيم الفئة الجهاديّة احمد النقسيس كمن لهم مع جماعة من الفرسان في موضع فخرج النصارى باولادهم وحشمهم وحالوا بينهم وبين سبتة وكادوا يفتحون سبتة وانشد له في ذلك الكاتب الارفع البليغ ابو عبد الله محمّد بن علىّ القشتالي بيتين رجّز له منهما القال باستيلائه

هذه سبتة تزفّ عروسا نحو ناديك في شباب وشيب
وهي بشرى وانت كفؤ اللواتي كلّفت بعدها بفتح قريب

وفي جمادى الاخيرة من عام تسعة والف كان سيل عظيم بفاس ثمّ في شعبان من السنة كان سيل اعظم من الاوّل هدمت به الدور وتهدّم سدّ الوادي بفاس على وثاقه واحكامه وهذا السدّ هو الذي انشاه احمد الوطّاسيّ ولمّا فرغ من بنائه قال الامام سيّدي علّي ابن هارون

لقد سدّد الله راى العباد وابطل في السدّ راي الجهول
وقرّب ما رامه من بعاد بمولاي احمد مدحي يطول
فطرداً وعكساً لساني ينادي عقول الملوك ملوك العقول

وقال فيه ايضاً الشيخ الامام ابو زكرياء سيّدي يحي بن السراج ما نصّه

الا سدّد الله راى الذي بتسديده سدّ سداً حصينا
وخلّد في عزّة ملكه ووالاه فتحاً ونصراً مبينا
امام الهدى احمد المرتضى مبيد العدا عدّة المسلمينا

وقال فيه ايضاً الشيخ الامام ابو مالك عبد الواحد بن احمد الونشريسيّ رحمه الله

ايا اهل فاس سدّد الله سدّكم براي ابي العبّاس حامي حمى فاس
واحيا به إشجاركم وثماركم على رغم قوم منكرين من الناس
فدام ودام السعد يخدم سعده وفاز من الشكر الجميل باجناس

قال شيخ مشايخ شيوخنا الفقيه العالم سيّدي محمّد بن سعيد المرغيثيّ في فهرسته

عند قوله تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ما نصّه فائدة عجيبة من حكاية غريبة فيها موعظة كان رجل بمراكش يقال له علّي الشمال في مدّة السلطان ابي العبّاس احمد المنصور فدخل يوماً من ايّام الله فالتفت الى سريره فراى غلاماً اسود فوق فراشه راقداً فصاح به وطلب سيفاً ليقتله فقال له الغلام امهل على نفسك فانك لا تقدر علّي بشيء فقال له لِمَ قال انا شيطان سلطت عليك قال ولِمَ سلطت علّي قال ويحك الم تسمع قوله تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين قال الرجل نعم صدق الله العظيم ثمّ قال اعوذ بالله من الشيطان الرجيم الحمد لله ربّ العالمين واستمرّ يقرا والشيطان يضعف ويذوب حتّى غاب فصار الرجل يختم القرءان كلّ يوم ختمة وصلحت حاله والحمد لله

ذكر مشاهير كتّابه ووزرائه

وولاة مظالمه وقضاته

امّا كتّابه فكثيرون ومن اشهرهم ابو فارس عبد العزيز بن ابراهيم الفشتالي قال في درّة الحجال في حقّه وزير القلم الاعلى ابو فارس عبد العزيز الصنهاجيّ ففيه اديب ناظم ناثر وهو متولّي تاريخ الدولة المنصوريّة التاريخ المذكور في مجلّدات اشتمل على تاريخ دولة ساداتنا الاشراف من اوّلها الى وقته على وقائعها ومغازيها وحوادثها وغير ذلك وعلى محاسن ابي العبّاس المنصور مولاى احمد الذهبيّ رحمه الله والّف مدد الجيش اي جيش التوشيح لابن الخطيب السلمانيّ والّف مقدّمة في ترتيب ديوان المتنبّي على حروف المعجم وله من النظم الرائق كثير وكان رحمه الله واسع الايثار علّي الهمّة متين الحرمة فصيح القلم زكّي الشيم ذكّي البلاغة والبراعة فارس الدواوين والبراعة اخذ عن جماعة

كابي العبّاس المنجور وابي العبّاس الزمّوريّ وابي مالك عبد الواحد الحميديّ وغيرهم من علماء الوقت ولد سنة ستّ وخمسين وتسعماية . وذكر صاحب الاعلام انّ من تاليفه شرح مقصورة المكوديّ رحمه الله وقال في نفح الطيب وكان سلطان المغرب المنصور يقول انّ الفشتاليّ نفتخر به على ملوك الارض نباري به لسان الدين ابن الخطيب . وممّا وقع له مع المنصور انّه كتب له يشكو له بعض ما اهمّه من دنياه فوقّع له المنصور من نظمه ببيتين بخطّه وهما

ياكاتباً اذا كتب	غرّس روضاً ذا فنن
انّ جوابي للذي	يشكو دناه اردد حزن

يعني درهم هكذا وجدت هذين البيتين في بعض مسوداتي ولا ادري من اين نقلتهما وما احسن ما قال ابو علىّ الحسن المسفيويّ المرّاكشيّ ممّا نقش في بعض مباني الكاتب ابي فارس عبد العزيز المذكور وذكرهما في نفح الطيب

اجل المعالي من قداح سرور	وادر كئوس الانس دون شرور
خلعت على عطف البهاء محاسنى	فكسته في الافاق ثوب حبور
وتناشق الوشّى المفرّق حلّتى	نشق البنفسج على نحور الحور
ساق القصور قصورها عن رتبة	لي بالهنا الممدود والمقصور
في المبتنى المرّاكشيّ وافقه	ازري على الزوراء والخابور
اعلى مقامى البارع الاسمى الذي	قد حاز سبق النظم والنثور
فاذا اقلّ بنانه اقلامه	بعثت عقود السحر بين سطور
عبد العزيز اخو الجلالة كاتب	سرّ الخليفة احمد المنصور
لا زال في يمن وامن ما شدت	ورق بروض بالندا محضور

وقد ذكر في نفح الطيب مراسلة كتب بها اليه فراجعها وكانت وفاته رحمه الله

سنة اثنتين وثلاثين والف حسبما ذكره صاحبنا في كتاب الاعلام والى تاريخ وفاته اشار الاديب الكاتب ابو عبد الله محمد بن احمد المكلاتي لاميّة في الوفيات فقال

يد الثر امست وهي شلّاء صاحبا به جيد هذا الدهر غير معطّل

ومنهم ابو عبد الله محمّد بن احمد بن عيسى وهو مؤلّف كتاب الممدود والمقصور من سني السلطان ابي العبّاس المنصور ومن شعره

اذا الدهر اعطاك منه المنى فدعه فذاك العطا لايدوم
ولا تامنن عدله في الورى فما الدهر الّا كقاضي سدوم

ومنه ايضاً

اذا نلت من ملك بلغة فكن بالذي نلت خير قنوع
ولا تامنن عدله في الورى فانّ النزول بقدر الطلوع

ومنهم الكاتب ابو عبد الله محمّد بن عمر الشاويّ وكان اديباً وهو القائل في هجو العدول

انّ العدول الذي جاء الزمان بهم عن العدالة والتوفيق قد عدلوا
احداث سنّ وألبابٌ كسنّهم تالله لو شهدوا في الكلب ما قبلوا

وله ايضاً في مدح المنصور

فخر الخلائف انّ عقدك واثق بالنجح من علياكم ومحقّق
فنوالكم عمّ البسيطة كلّها لم يبق معه في البريّة مملق

فالغرب يرفل في ثياب جمالكم وجلالكم يرتجّ منه المشرق
امطر علىّ سحاب جودك ثروة وانظر اليّ برحمة لا اغرق

ومنهم الكاتب البليغ ابو عبد الله محمّد بن علىّ الوجديّ كان من صدور الطلبة ومن قطوف ازهار الادب وبرع في الانشاء وقد رايت رسالة حلاه فيها ابو فارس عبد العزيز الفشتاليّ بما يدلّ على علو همّته وسمو طبقته ومن شعره جواباً عن لغز الفقيه ابي زيد عبد الرحمن بن ابراهيم المستراءيّ وهو

احاجي فاضلاً حبراً نجيبا ليعرب عن ضمائرنا بفهم
فما اثنان استطالا واستداما وقد قسما الزمان بدون ضيم
وخلّ زاد لي بعد امتلاء ويقسم ان يواصل اىّ سقم
وضيف جاءني من غير ارض فناولناه شاة دون عظم

ونصّ الجواب المذكور

فدتك النفس مولود اتاكم وتلك الشاة فاعلم ثدى امّ
وذاك الخلّ ضاهى وجه حب وحسن سمائه يجلى بوهم
والاثنان اللذان قد استطالا نهار كان منه بديل يوم
وليل مثل عرض الارض طولا على انّي عدمت فيه نوم
فدونك سيّدى حلّ الاحاجى وعش ما دام قطر السحب يهم

ومن شعره ايضاً

وعشيّة قصرت بوصل حبيب ياليتها سمحت بترك غروب
وكذاك اوقات السرور قصيرة مذ كانت اللقيا بغير رقيب

ومن خطّ ابن القاضى رحمه الله ما صورته انشدني بمرّاكش ابو عبد الله الوجديّ لنفسه في ربيع الثاني عام ستّة والف

لبس الصفرة كى يزهو بها شادن من جنّة الخلد نفر
خلته من حسنه لمّا بدى هالة المسجد وسطها القمر

وانشدني لنفسه ايضاً

وصفراء كالشمس المنيرة نورها لها في خدود الشاربين مطالع
اذا لمعت في الكاس قال مديرها ابدر بدا من جانب الغور لامع

توفّى رحمه الله سنة ثلاث وثلاثين والف ذكره في الاعلام ومنهم الاديب البليغ الكاتب ابو الحسن على بن احمد الشامىّ واولاد الشامىّ ينتمون للخزرج ولهم مصاهرة مع المنصور وكان ابو الحسن فقيهاً مشاركاً وله نظم رائق ذكر منه المقّريّ في كتابه فتح المتعال في مدح النعال جملة وافرة توفّى عام اثنين وثلاثين والف ذكره ايضاً في الاعلام ومنهم الكاتب الشهير الصدر ابو عبد الله محمّد بن علىّ الفشتاليّ وهو صاحب الوفيات نظماً على روى اللام وله شعر حسن ذكرنا منه نبا سلف جملة وممّن يعدّ في الكتّاب وان كان قدره اعلا من الكتابة الفقيه الاديب الاوحد الاريب ابو عبد الله محمّد بن يعقوب من ايث يوسى قبيلة من البربر بسوس وكان صدر الادباء في وقته بمرّاكش وغيرها بحيث كان الكتّاب يرجعون اليه في عويص المكاتبات ويترافعون اليه في حلّ المشكلات والمهمّات وحسبك انّ الامام ابا العبّاس احمد بابا السودانيّ نقل عنه في كفاية المحتاج ووصفه بالثقة الناقد وقال فيه انّي لم الف بالمغرب اثبت ولا اصدق ولا اعرف بطرق العلم منه . ولابن يعقوب هذا في فهرسته شعر حسن ومن نظمه في البهائم التى تدخل الجنّة

وكبش الذبيح ثمّ هدهد ذو النبا حمار عزير ثمّ ناقة صالح
وعجل الخليل ثمّ ناقة احمد كذا كلب اهل الكهف افضل نابح
وصفراء موسى لونها سرّ ناظر ونملة قالت وهى انصح ناصح
تحلّ جناناً ثمّ سابح يونس مقاتلهم يروى اذا ذو النصائح

ومن شعره قوله

ابيت كانّ في العيون مراودا سميراً ولا تحلو لدىّ المراقد
اهيم بامر لو وجدت مساعدا اذا عظم المطلوب قلّ المساعد

وعارضه ابو العبّاس احمد بن القاضى فقال

وقائلة ما لا ارى لك ناصرا وانت غريب في الانام مباعد
فقلت لها من المعالي مطالبى اذا عظم المطلوب قلّ المساعد

وبالجملة فكتّاب المنصور لا يستوفيهم الحصر وفي هذا القدر الذي ذكرناه كفاية والله الموفق وامّا وزراؤه فذكر في شرح درّة السلوك منهم عبد العزيز بن سعيد المزوار المعروف بولد مولات الناس وقال في درّة الحجال في حقّه مانصّه عبد العزيز بن منصور الوزكيتى صاحب احمد الذهبى رحمهما الله يعرف بالقائد عزّوز صاحب جبل درن من ولد مسعود بن واركاس قائد الناصر الموحّدىّ بغزوة العقاب من بلاد الاندلس عرف بجدّه المذكور صاحب روض القرطاس ولعبد العزيز هذا همّة في المعالي وجمع الكتب العلميّة ويقال انّه كان عنده من الدفاتر خمسون الف مجلّد ولد رحمه الله بتارودانت سنة ستّ وخمسين وتسعماية وبيتهم بجبل درن بيت عظيم معتبر . ومنهم مولود مولاه والناصر بن علىّ بن شقرا وذكر صاحب الفوائد قال كان في الدولة المنصوريّة

شاعر يسمّى الدايم وكان هجّاء مدّاحاً فمن مدحه في القائد ابراهيم السفيانيّ قوله

له في ظلام الليل وقفة راهب وعند اصطلاء الحرب حرمة ماجد

وقال في الشرطيّ وهو محمّد بن محمّد بن الحسن المعروف بالمسمار

كم من سيوف مضت سلّ الزمان بها اطامع بعدها في الخلد مسمار

وقال في القائد مومن بن ملوك العلج

فان كان كلّ المومنين كمومن فلا حملت في المومنين الحوامل

وامّا ولاة مظالمه فقال ابن القاضي ايضاً منهم ابو الحسن عليّ بن سليمان التامليّ ابن ابن اخي الفقيه المعظّم الحسن بن عثمان وقد وصفه الفقيه سيّدي عبد الرحمن التلمسانيّ ثمّ الردانيّ في بعض اسئلته بالامين الناصح والفقيه الصالح وقد تقدّم ما وصفه به المنجور في ترجمة عمّ الفقيه المتقدّم وكان وليّ المظالم للسلطان ابي محمّد عبد الله الغالب بالله كما سلف وهو اوّل من قطن بالمواسين من اهل بيته وفيهم يقول الفقيه الاديب اللوذعيّ الاريب سليمان بن ابراهيم بن سليمان

بالله ان وطئت مرّاكشا قدمك وجُزْت يوماً على تلك البساتين
الّا تقدّم امراً قد هممت به حتّى تحكّي سكّان المواسين

وامّا قضاته فبمرّاكش الفقيه القاضي ابو القاسم بن عليّ الشاطبيّ ولي القضاء مدّة طويلة وله يقول الفقيه الاديب الناثر الناظم ابو فارس عبد العزيز بن محمّد الفشتاليّ

تولّى القضاء بمرّاكش فقيه له همّة عالية

يواسي القريب ويعطي البعيد ... ويسرد احكامه الماضية
ولا عيب فيه سوى انّه ... تغلّبه امة جارية
وتحكم فيه فهو لها ... مطيع وهي له عاصية
سانشده قول من قد مضى ... لانّ القوافي له داعية
فيا ليته لم يكن قاضيا ... ويا ليتها كانت القاضية

فاجابه ابو القاسم بقوله

اعبد العزيز القبيح الصفات ... تعرّضت ويحك للمهلكات
اتطمع يا ندل في خطّتي ... وانت جهون بحكم الصلات
اما تذكرنّ زماناً مضى ... وانت وعرسك عند الرمات
فطوراً تقود وطوراً تجول ... عليهم باسنك ماض وات
فكن كابيك اللئم الذي ... يواسي العصاة ويقصي العفات
ولا تتعرّض الى خطّتي ... فانّ لساني يشقّ الحصات

توفّي الشاطبيّ رحمه الله عام اثنين والف وتولّى القضاء بعده ابو عبد الله محمّد بن عبد الله الرجْراجي المعروف ببو عبدلي وكان من صدور علماء وقته جادل علماء فاس فحجّهم توفّي رحمه الله عام اثنين وعشرين والف وفي تاريخ وفاته يقول ابو عبد الله المكلاتيّ في لاميّته

واما ابن عبد الله قلّ شبيهه ... فيا لك من قاض زكيّ معدّل

وكان قاضيه بفاس الفقيه العالم الصدر ابو مالك عبد الواحد بن احمد الحميديّ وكان فقيهاً عارفاً بمختصر خليل داوباً على تدريسه مع المشاركة في غيره من العلوم وكان اوّل ولايته للقضاء في ايّام السلطان ابي محمّد عبد الله الغالب بالله

عام سبعين وتسعماية وكان السلطان المعتصم نقم مرّة عليه شيا فسجنه مدّة فبعث باولاده للشيخ سيّدي رضوان يطلب منه ان يشفع له عند السلطان المعتصم فكتب له سيّدي رضوان بخطّ يده يحضّه على الاستشفاع بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم والاستمساك بحبله الاعصم لانّه باب الله الاعظم بيتين وهما هذين كما ترى

ما للنوازل والخطوب تنبّهوا ... الّا الزعيم ومن يقول انا لها
فالوِ العنان ببابه مستشفعا ... وات البيوت اخى من ابوابها

فقبل القاضى اشارته وتوجّه الى ربّه بكلمته فاتاه الفرج في الحين ولسيّدي رضوان ايضاً في هذا المعنى

واذا الكريم سالته بحبيبه ... حاشى وكلّا ان يخيّب سائلا
ومَن الكريم سواك ربّ العالمين ... ومَن الحبيب سوى من اصبح كاملا
وهو النبيّ محمّد اكرم به ... ساد الانام اواخرا واوائلا

وقال ابن القاضى في جذوة الاقتباس حسبما قراته بخطّه الّا انّه شطّب عليه بالحمرة ما نصّه عبد الواحد بن احمد الحميديّ الفقيه القاضى بمدينة فاس كان حافظاً لمذهب مالك الّا انّه نبذ الشريعة المحمّديّة وراء ظهره وكان يحكم بموافقة شهوته مع علمه بالفقه ولا يبالي بما فعل فيها حتّى اكتسب هو ومن والاه اموالاً جليلة لا حصر لها ولمّا توفّى قال فيه صاحبنا الوزير عبد الرحمن بن ابراهيم المستراءيّ

تولّى الحميديّ واحزابه ... وايّام دولته الغاوية
ومات وخفّت موازنه ... وصار الى امّه الهاوية

وكان القاضي الحميديّ المذكور اديباً شاعراً جيّداً ومن شعره قوله

ما لم يكن للعلم عند فنائه راج فانّ بقاءه كفناءه
بالعلم يحيي المرء طول حياته فاذا انقضت احياه حسن ثنائه

وقال ايضاً في طالب كان يعرف بعثمان الذبذوبيّ وكان كثير الجدال ما نصّه

وصوت عثمان لدى المجالس كصوت بلبال من العتارس
ليس له فهم ولا له نظر جزاؤه الضرب باذناب البقر

وقال ايضاً في طالب اخر يعرف بالحمام وقد سرقت ثيابه من الحمّام ما نصّه

فلو رايت مشية الحمام خرج عرياناً من الحمّام
بصلعة بيضاء كالثغامه يشبه في مشيته اسامه

توفّي رحمه الله عام ثلاثه والف كانت بينه وبين المنجور منافسة حتّى انّ السلطان المنصور قدّم المنجور مرّة للصلاة فلمّا اراد المنجور ان يدخل المحراب منعه الحميديّ فقال له السلطان دعه فقد قدّمه علمه فقال الحميديّ ان قدّمه علمه فقد اخّره نسبه والله يسامح الجميع بمنّه وامّا قاضيه بتينبكت من بلاد السودان فالقاضي ابو جعفر عمر بن العاقب الصنهاجيّ وهو قاضي الجماعة ببلاد السودان وماوالاها

ذكر الخبر عن وليّ عهد المنصور وهو ولده ابو عبد الله مولانا المامون المعروف بالشيخ

كان ابو عبد الله محمّد الشيخ المامون وليّ العهد كما تقدّم وكان خليفة لابيه على فاس وما والاها من عمالاتها المغربيّة كثيراً من حياة ابيه وكان للمنصور اعتناء

تامّ به واهتمام عامّ بشانه حتّى قيل انّ المنصور لا يختم على ربيعة من المال الّا قال جعل الله فتحها على يد الشيخ رجاء ان يقوم بالامر بعده ويسوس الرعية مثله فلم يساعده القدر المحتوم السابق المرسوم كما قيل

ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

وقد وقفت على رسالة كتب بها المنصور ونصّها من عبد الله سبحانه المجاهد في سبيل الله امير المؤمنين ابي العبّاس المنصور بالله ابن امير المؤمنين ابي عبد الله محمّد الشيخ المهديّ الشريف الحسنيّ ايّد الله بعزيز نصره اوامره وظفر بيمنه ومنّه عساكره الى ولدنا وليّ عهدنا الامير الاجلّ الاعزّ الافضل بابا الشيخ وصل الله كمالكم وسنا من خير الدارين امالكم سلام عليكم ورحمة الله وبركاته امّا بعد فكتابنا هذا اليكم من حضرة مرّاكش حاطها الله ولا جدير الا ما عدّده مولانا من الخير لله الحمد وله المنّة هذا والذي اوجبه اليكم اسعدكم الله وكلاكم انّه بلغنا انكم قد استخدمتم هناكم جماعة من اولاد طلحة كاولاد اخي عليّ بن محمّد واخي محمّد بن ملوك وغير هولاء وانّك قد فرضت عليهم في اعطياتهم نحو خمسة الاف والى هذا ايّ مصلحة ظهرت لك في استخدام هولاء القوم حتّى تتحمّل كلفة فرض هذه الفروض بل ما في ذلك الّا الفساد البيّن لانّ الذي فرضتم لا يفي به المغرب ولا يقوم بكم شيء ومسالة هولاء اولاد طلحة ان كنت رايت استخدامنا لهم واردت تقليدنا في ذلك واقتفاء سيرتنا فيه فاعلم انّ بيننا وبينكم فرقاً من وجوه منها انّ مدينة مرّاكش ليست كمدينة فاس وانّ خدمتهم هنا لبعدهم عن بلادهم ليست كخدمتهم هناك وايضاً هولاء الناس انا اعرفهم وكنت في بلادهم وهذه الخدمة كانوا يطلبونها منّي وانا هنالك فواعدتهم بها اذ لا يمكنني وانا في بلادهم الّا مساعفتهم فلمّا جاءوا اليوم وطلبوني بالوعد لم

يتمكّن لي الّا الوفاء لهم به وعليه شرطنا عليهم مرّاكش وسكّناها وعلى هذا الشرط المذكور استخدمنا منهم من استخدمناه مع هذه الوجوه والاعتبارات كلّها فقد ندمت والله على استخدامهم غاية الندامة وانا في ذلك على خطا اذ كان الاولى ان نكون حاستهم وتركتهم من الخدمة وامّا انت ففي مندوحة من هذا كلّه لانّه لا وعد لك سابق لهم حتّى يلزمك الوفاء به ويمكنك ان تخليهم من اذننا ومشورتنا فتكفيهم عنك بالشرط الذي شرطنا عليهم من الخدمة هنا بمرّاكش وسكناها وعلى هذا الشرط استخدمنا منهم من استخدمنا والى هذا فالذي نؤكّد به عليك ان تنقضهم من الخدمة ولا تستخدم منهم ولو فارساً واحداً اصلاً ومن الذين ذكرنا لك ومن غيرهم كافّة من اولاد طلحة وامرناك ان تنصّل منهم وتقول لهم انّ السلطان منعني من استخدامكم هنا وتقرا عليهم كتابنا الواصل ليكم صحبة هذا لتتفادي منهم ولكن الخفاء مع هذا كلّه لا تظهره لهم بل تحسن اللقاء بهم وتواليهم باظهار البشر والقبول وباب الطمع تسدّه دونهم والذي شقّ علينا اعظم من هذا كلّه واستنكرناه ولم نجد صبراً عليه هو ما وجدناه قد اطلع عليه اولاد طلحة علىّ بن محمد وغيره من اخوانهم في اخباركم والفيناهم قد توصّلوا من ذلك الى ما لم يتوصّل اليه والله احد من كبار خدّامكم اهل بلادنا وخواصّ اهل بساطنا لانّ اهل بلادنا احياء ما لهم بحث الّا في مصالح انفسهم وهؤلاء انّما يحثون على القوّة وعورة المملكة فاذا بكم تستخدمونهم بطانة واصدقاء وتطالعونهم على اموركم واحوالكم مع انّ القوم ما زالوا ببلاد العدوّ وبين اظهره وانّما الذي يطالعونه نحتاج نقطع ونجزم فانّ الترك قد اطلعوا عليه حتّى كانّهم شاهدوه ووقفوا عليه بانفسهم وايضاً لو كانوا اصدقاء ولا يريدون بها الّا الخير فالقوم عرب لا يتحافظون على ما يطالعون ولا يفهمون ما يحسن اخفاؤه ولا ابداؤه ولا يتمالكون من انفسهم قولاً ولا نطقاً وبالجملة فقد احرقتنا هذه المسالة وتفطّرت لها اكبادنا وصارت قلوبنا منها مقطوعة وهل ما عندكم علم بانّ الناس كانوا يتحافظون في

اقلّ الامور ان يطلع عليها الاجانب وان كانوا احبّ من كلّ حبيب واقرب من كلّ قريب وما عندكم علم انّ اخانا بابا منصور كان عرض له غرض ضعيف جدّاً اراد ان يطلبه لاخينا بابا عبد الله وحضر في المجلس منصور بن المزوار ولم يُرِدْ بابا منصور لفطنته ان يذكر ذلك حتّى يشاور فيه من بازائه لئلاّ يكون في ذكر ذلك بمحضره عيب فشاور فيه القائد دحّ بن فرج كان بازائه فقال له هذا الرجل برّانيّ فلا تطلب شيئاً قدّامه على انّ منصور بن المزوار هذا كان مع اسلافنا من اقرب ما اليهم من خواصّ الخدّام اهل بساطنا محبّة وقرباً لانّه كان سلف له معهم حرمة عظيمة فقد كان عدواً للترك وبينه وبينهم ارواح كثيرة وحضر مع اخينا بابا حمّ الحران جميع ما كان في تلك البلاد من الوقائع العظام وغيرها ايّام استيلائه على المغرب الاوسط ثمّ مع بابا عبد القادر كذلك وشرب معهم الحلوة والمرّة ولمّا جاء من تلمسان جاء باولاد منها راجلاً كما جاء منها بابا عبد الله باولاده وكما جاء منهم خدّامنا اهل هذه البلاد وما زال على الخدمة والوفاء وحسن العهد حتّى حصلت له حرمة عظيمة مع اسلافنا وناهيك بمن بلغ الى ان قلّدوه تازى ثمّ بلاد الفحص التى لا تعطى كلتاهما الاّ لاقرب الخدّام الموثوق بمحبّتهم وقربهم وخدمتهم ومع بلوغه الى هذا المبلغ كلّه محبّة وصداقة وهجرة وانقطاعاً حتّى انّه في دخول رءيس الترك لفاس رحل باولاده الى هنا مع السلطان كما فعل اهل هذه البلدة وحين دخلنا نحن ايضاً من جهة الشرق لفاس رحلوا ايضاً مع صاحب الجبل لمرّاكش ولا يعدوا انفسهم من هذا الجانب ابداً في الحديث ثمّ انّ الناس استعاروا ان يطلبوا اقلّ المسائل بمحضره وقالوا انّه برّانيّ فضلاً عن هولاء الذين لم يزالوا الى اليوم في بلاد العدوّ يباكرونه ويراوحونه فاذا بكم تنزلون معهم الى ان تطالعوهم على اموركم ويتوصّلون الى المعرفة باحوالكم فما تمالكنا لهذه المسالة ومن جملة الامور التى غاظتنا وقلنا كيف يتوصّل الرجل البراني الى امثال هذه فانّ على بن محمّد كان يتكلّم يوماً معنا واخذ يثنى عليكم في نجدتكم وصبركم عند الشدّة

وسخائكم عند الحاجة ثمّ قال الاّ انّ الخيل ليست عنده لا في الحركة الاولى ولا في الثانية لانّ القبائل اهل الخيل امتنعوا من الحركة معه وهى التى غاظتنى وقلت كيف يتوصّل الرجل البرّانيّ الى امثال هذه حتّى انا ما وجدنا الاّ الردّ عليه وعكس ما عرفنا انّهم اعتقدوه وقلنا لهم نسبة التقصير اليكم ولا اعتقادهم خلو البلاد من الخيل لانّنا فهمنا منهم ذلك ولهذا اجبته وقلت له انّ ولدنا لم يعط لهم شيأً واعطى لمن لا يستحقّ من ضعفاء القوّاد المعروفين باكل المال من غير مصلحة وعدم المخازنيّة ولو اعطى لتلك القبائل لحصرها عليه لانّ اولاد مطاع عندهم من الخيل نحو الثلاثة الاف وعند اولاد ابي عزيز نحو الالف والنصف وعند العزفي وعند اولاد عمران وعند عبدة وعند الشياظمة وعند اولاد ابي راس وعند احمر وعند المنابهة اهل سايس وعند المنابهة اصحاب عمر بن محمّد بن عبّ وجعلت اعدّ له قبائل اهل سوس وقبائل مرّاكش واحصى له خيلهم بما ابتهه وقلت له لو انصفهم لحرّك منهم ستة عشر الفاً واكثر ويكون قد ملا بهم تلك البلاد وسال عليها منهم سيل عرم لا في الحركة الاولى ولا في الثانية ولو وجّه اليهم المحرّكين والرماة لتوجّه لهم ايضاً بما لا طاقة لهم به منهم ولا خلاص والى هذا فانّا نوصيكم وننديكم الى المحافظة من اولائك الناس ومن رفع الحجاب لهم عن اموركم والاطلاع على احوالكم وعدم الغفلة عن مثل هذا واعلم ان من جملة ما بلغنا ايضاً انّ الخلط كلّهم رجعوا رماة على يد مصطفى مع حديث عهدهم بالفساد والخلاف وكنّا انتشبنا معهم بالعودات فاذا بهم اليوم بالمدافع وعدّة النار وهل هذا ممّا يجوز عليكم حتّى تسمحوا فيه مع انّ هذه المسائل ليست بغائبة عنكم حتّى تسمعها بالسماع فقط ولا طويلة العهد حتّى تناسها بل بالامس شاهدت وباشرت ورايت فما الذي انساك فعلهم وما زال جرحهم الان لم يبر لانّ خروج القائد مومن الخارج الان ما كان الاّ اليهم والان نوكّد عليك ان تنقضهم من الخدمة ولا تسمع لمصطفى ولا لغيره في هذه المسالة وقد سمعت ايضاً ان قوّاد الفساد

الذين عندكم من اولاد حسين قد صارت حلّتهم من باب الخميس الى دار الدبيغ وكأنّكم نسيتم ايضاً عمل اولاد حسين بالامس دون بعد من النهب وما اضرموا من نار الفساد والعبث في البلاد حتّى ينزلوا تلك المنازل والى هذا فساعة وصوله اليك تقبض على قياد الفساد هولاء خصوصاً احمد بن عبد الحقّ من اولاد يحيي بن غانم الذي كان ابوه حاجباً عند المرينيّ فهو اصل الفساد ثمّ لا تترك لقبائلهم جناحاً واحداً وتزيد للقائد مؤمن بن ملوك الف رام ليستوفى بكم الغرض في هولاء وامثالهم من كلّ ما قاوموه به لانّ بقاء الرماة هنالك ما فيه الّا الاشتغال بالفساد بالمدينة فتحتاج ان تتولّاهم بالقتل كلّ يوم باطلاً فكان خروجهم اذّاك دفعاً لمضرّتهم وجلباً للمصالح بهم اولى وحتّى الكاتب اللائق بامثالكم ورسائلكم لم يكن عندكم الان فانّ كتبكم تاتي بخطّ سالم وهو غير عارف بالانشاء وتارة بخطّ الكرنيّ وهو جاهل مع انّك كنت خليفتنا ووليّ عهدنا فانت بصدد ان يكتب لك كلّ احد امّا صاحب الجزائر وامّا صاحب تونس وحتّى صاحب الترك وصاحب النصارى وكلّ من يكتب لنا من ملوك الارض بصدد ان يكتب لك فتحتاج حينئذ الى من يحسن الجواب عنك لكلّ من يكتب اليك ويكون ايضاً ممّن يوثق به في المحافظة على اسراركم والى هذا فلا بدّ من تعيين قائد المحلّة وحاجب وكاتب سرّك واصحاب مشورتك وصاحب المظالم كما هو عندنا سيّدي علىّ بن سليمان واعلم انّ ممّا نحتاج ان ننبهك اليه مسالة القياد الذين يريدون ان يحملوك اثقال اولادهم. مثل ما فعلت في اولاد القائد بركة واخوته الذين استخدمتهم وعملت لهم خمسماية اوقية فتوكّد عليك الّا تستخدم منهم احداً فما اعطينا له سلا الّا ليرفع فيها اولاده واخوته وكذلك الحكم في امثاله من كلّ ما اعطيناه عملاً وقلدناه القيادة ومن جملة من نحذرك من استخدامه في الرماة اهل الجبال من اهل الصحفة والدينار فلا تستخدم منهم احداً والّا فاعلموا انّكم ما اردتم ان يعطوا لكم حينئذ ولا ان يغرموا لكم بعد شيئاً واذا اردتم الخدمة فيها هم اهل هذه البلاد مثل اهل

سوس واهل درعة واهل مرّاكش فكلّ ما تستخدمون من هولاء فلا عليكم واذا لم يكن هولاء وكان ولا بدّ من غيرهم فمن اهل فاس سكّان الحاضرة وامّا من عداهم فلا على انّ الرماة اهل سوس ها هي هنا عندنا كثيرة فكلّما تريد منهم عرّفنا به نبعثهم ونضيفهم الى خدمتك ونوكّد عليك ان تكاتبنا بجواب هذه الامور كلّها فصلاً فصلاً مع المملوك الحامل لهذا الكتاب ان شاء الله ولا بدّ وهذا موجبه اليكم والله يحرس بمنه علاكم والسلام وفي مهلّ جمادي الاولى من عام احد عشر والف

ذكر الخبر عن سفر المنصور من مرّاكش لفاس

حرّسها الله وسبب ذلك

تقدّم انّ الشيخ المامون بن المنصور كان خليفة لابيه على فاس الاّ انّه اساء السيرة واضرّ بالرعية وكان فسيفاً خبيث الطوية مولعاً بالعبث بالصبيان مدمناً للخمور سفّاكاً للدماء غير مكترث بامور الدين من الصلاة وشرائطها ولمّا ظهر فساده وتبيّن للناس عواره نهاه القائد ابراهيم السفياني وزير ابيه عن سوء فعله فلم ينته واستمرّ على قبحه فاعاد عليه فلمّا اكثر عليه من التقريع والتوبيخ سقاه السمّ فكان فيه حتفه ابراهيم وكان ممّا انكر عليه انّه قبض على كاتب ابيه ابي عبد الله محمّد بن عيسى المتقدّم الذكر ووظّف عليه مالاً وبزّه ذخائره واخذ ماله حتّى كان ممّا اخذ فيه ثمانين حسكة مذهّبة ومائة تخت من الملف المختلف الالوان فلمّا كثرت قبايحه وتردّدت الشكاية به لابيه كتب له ان ينكفّ عن غيّه ويتزجر عن خبثه وسوء رايه فما زاده التحذير الاّ اغراء فلمّا راى المنصور انّه لم يكترث بامره ولم يزدجر عن جنايته وشرهه عزم على التوجّه لفاس يقصد ان يمكر به ويودّبه بما يكون رادعاً له فسمع الشيخ بذلك فجمع

عسكره وهيّا جنده ودفع المرتب لاصحابه وعدّد جيشه فكان فيما قيل اثنين وعشرين الفاً كلّهم بكساوي الملف والحرير على احسن شارة واكمل زيّ وعزم ان بلغه مخرج ابيه من مرّاكش ان يتوجّه في اصحابه الى تلمسان ويستجير بالاتراك فلمّا بلغ المنصور ما عزم عليه الشيخ من الذهاب الى تلمسان تخلّف عن الخروج من مرّاكش فصار يلاطفه ويامره الاّ يفعل وولاّه سجلماسة ودرعة وتخلّى به عن خراجهما وقال له قد سوغتكه ولا اطالبك به ومراده بذلك كلّه ان تسكن نفرته ويرجع اليه عقله فاظهر الشيخ امتثال الامر وخرج يوماً ماراً لسجلماسة فما انفصل عن فاس بشيء يسير حتّى رجع لها وعاد لما كان عاكفاً عليه فبعث المنصور اعيان مرّاكش وعلماءها فنصحوه ووعظوه وخوّفوه سخط والده وحذّروه من العقوق ولم يالوا جهداً في النصيحة له فوجدوه مشغول القلب عن نصايحهم معمور الذهن بخلاف قولهم الاّ انه اظهر الرجوع عمّا كان عازماً عليه من الفرار من ابيه وقصر في الظاهر عن قبايحه فرجع الاعيان والعلماء للمنصور لمرّاكش وقالوا له انّه تاب وحسنت حالته واطمانّت نفسه وانّه وافق عند الامر والنهي فلم يطمئن المنصور لقولهم وقال لهم لعلّ هذا اصلاح للشحناء وكذب لاصلاح الخاطر ثمّ لم يلبث المنصور ان يبعث لولده زيدان وكان خليفة بتادلا يامره ان يرسل ماية من الفرسان على طريق تاقبالت وكلّ من وجدوه قاصداً للغرب من ناحية مرّاكش يردّوه وارسل مولاه مسعوداً لدوران يقف على طريق سلا ويفعل مثل ذلك وخلّف ولده ابا فارس على مرّاكش وخرج حينئذ المنصور من مرّاكش في اثنى عشر الف من الخيل وكان خروجه في اوائل جمادي الاولى عام احد عشر والف وجدّ السير فلم تمض الاّ ايّام قلائل حتّى نزل بالداروج موضع قريب من مكناس وفاس والشيخ في جميع ذلك لا شعور له بخروج ابيه ولا بما هو عليه فبعث يوماً عيونه يرصدون له من قدم من مرّاكش ويكشفون له عن الخبر فما راعهم الاّ الاباطح سائلة باعنّة الجياد وافواه الشعاب تقذف الجيوش

من بطون الاودية لانّهم قد عميت عليهم الانباء بقطع المنصور للسابلة فرجعوا للشيخ مسرعين والرعب يفتّ في اعضائهم ويطفى لدبرة عزائمهم فقصّوا عليه ما دهمهم واخبروه بما راوا فعلم انّه محاط به فلم يمكنه الّا الفرار فركب من حينه وهرب لزاوية الوليّ الصالح ابي الشتاء ببلاد فشتالة قرب نهر ورغة وكان سيّدي ابو الشتاء قد توفّى قبل ذلك بما يقرب من خمسة عشر سنة لانّ وفاته كانت سنة سبع وتسعين وتسعماية كما في المرءات بالموحّدة في الاول والمثناة في الثانيين فنزل بالزاوية ومعه بطانته واصحاب دخلته من الاحداث واتباع السوء فبلغ خبره للمنصور فوجّه له الباشا جودر والقائد منصور النبيلّ وحلف لهما باغلظ الايمان ان لم ياتيا به ليمكرنّ بهما ويجعلهما عبرة فذهبا اليه فامتنع من الدخول في يدهما وانعزل باصحابه حتّى تراموا بالنبل وناوشهم القتال فقبضوا عليه في حكاية طويلة فامر به المنصور ان يسجن بمكناس فسجن بها ودخل المنصور لدار الملك من فاس الجديد وشكر الله على ما اولاه من الظفر به والنصر عليه من غير اراقة دم وتصدّق لذلك باموال عظيمة ثمّ ان امّ الشيخ الحيزران بعثت الى اعيان مرّاكش الذين قدموا مع المنصور ترغبهم ان يستشفعوا لولدها عند ابيه ويعتذروا عنه بما يزيل ما في خاطره عليه فتقدموا للمنصور ورغبوه وطلبوا منه السماحة له والتجاوز عنه وقالوا له انّ الشيخ تاب لله عمّا كان عازماً عليه وانّه ندم على ما فرط وصلحت حاله فقال لهم المنصور اذهبوا لمكناس واختبروا امره كائناً ما كان وانظروا هل رجع عن اباطيله وتنصّل من اضاليله ام لا فلمّا اتوه وجدوه اخبث ممّا تركوه وعاينوا منه من القبائح ما يقصر عن وصفها اللسان فلمّا جلسوا معه في محبسه لم يسالهم عن شيء الّا عن اصحاب بطانته وقرناء السوء من اهل غيّه وخلالته ولم يظهر الاسف الّا على تلك العصابة وراهم اهل الاصابة وكان من الاعيان الذين وجّههم المنصور لذلك اوّلاً واخراً اولاد سيّدي ابي عمر القسطلّ واولاد سيّدي عبد الله بن ساسى واولاد سيدي يحيى بن بكّار وغيرهم فلمّا رجعوا من مكناسة

الى المنصور سالهم عن الخبر فنافق بعضهم وقالوا وجدناه تائباً نادماً على ما صدر منه وتكلّم اولاد عبد الله بن ساسى وقال بعضهم والله لا داهنت في حقّ الله ولا واجهت امير المؤمنين بالخديعة وقال له انّ ولدك والله لا تاذنن لك ان تؤمّره على شى ولا تحكّمه على عيال الله سبحانه فانا وجدناه خبيث الطوية قبيح السريرة والنيّة لم يندم على ما فرط ولا تاب عن فعل وشطط فسكت الحاضرون ولم يتكلّم احد فقال لهم المنصور افتوني في امر هذا الولد فلم يجبه احد الّا باشته السيّد عبد العزيز بن سعيد الوزكيتى فانّه قال الراى ان تقتله فانّه لا يخبر امره ولا يرجى صلاحه وخيره وقد رايت ما صنع فلم يعجب المنصور ذلك وقال كيف اقتل ولدي فبعث بالتضييق على الشيخ والزيادة في الحبس عليه وخرج المنصور فنزل بمحلّته بظهر الزاوية قاصداً لمرّاكش واستخلف ولده زيدان على فاس ومن هنالك كتب المنصور رسالة لولده خليفته على مرّاكش ابي فارس يعلمه بما وقع في ذلك ونصّها من اوّلها الى اخرها: الى ولدنا الاجل الارضى الافضل المرتضى الامجد الاسمى الاسعد الاسنى بابا ابي فارس وصل الله كمالكم وسنّى بمنّه امالكم سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فكتابنا هذا اليكم اسعدكم الله من محلّتنا السعيدة بالمستق ولا ناشىء الّا ما جرت به الاقدار وحكم به الفاعل المختار ويحاً به من عجائب الدهر الليل والنهار وهو قضية اخيكم التى ثارت اليّ بها صروف الدهر من مكمنى وطلعت على مأمنى الّا ان الله تعالى بصنعه الجميل كفانا اوّلاً ثمّ شفانا اخراً له الحمد دائب وله الشكر واجب وشرح ذلك اسعدكم الله ووقاكم السوء كان انتهى في معالجة امره الذي تجاوزنا في وجه الخير اليه حدّ الاستقصاء واتينا في محاولة استصلاحه من احوال السياسة المرجوة النجح ما لا يحصى الى ما كنّا سوّغناه من ولاية سجلماسة بخراجها وخراج درعة وابحنا له التوجّه اليها بجملته وجمعه رجاء ان تسكن بالانتباذ اليها نفرته وتطمئن نفسه وينوب اليه قلبه الطائر ويراجعه انسه النافر فاظهر اوّلاً التوجّه اليها ونهض مرتحلاً عن فاس موريا

شان القدوم عليها ثمّ بدا له في الحين وكرّ راجعاً لفاس ورجونا ان يكون قد ذهب عنه النفار والشماس وآب لنفسه السكون والاستيناس فاذا به في رجوعه قد انطوى على خلاف ما اظهر وابدى غير ما اضمر فما كان الاّ ان وصله خبر نزولنا بالداروج فلم يتمالك ان اقلع ليلة الخميس خامس عشر شهر تاريخه اقلاعاً ازعجه من الدعر فريداً وطارت به النفرة الى ان حلّ بزاوية ابي الشتاء وحيداً فتلاصق به رماته الانكشارية ومتفرّقة سماسرة الفتن وطلائع الشوم والمحن جمع عظيم وعدد كثير بريم فبادرت حينئذ بتجهيز جودر باشا من غير اغفال في خمسماية صبايحية ومعه القائد مؤمن بن ملوك في خمسماية فارس ثمّ اردفناهما ببعوث اخر تتال اليه وتتالت عليه تناهز الالفين من رماة بابا زيدان حفظه الله فاذا هو قد احدقت به من كلّ الجهات وملكوا عليه الفجاج والثنيات ونحن مع ذلك خلال هذه الاحوال لم نهمل مقابلة نفرته بالتسكين وما يخشى من احواله بالتلقين بارسال المرابطين بمواثيق تهنّيه وعهود تونّسه وتقرّب امانيه رجاء ان ينوب اليه نائب الاستبصار ويخطر له خاطر اقلاع عمّا هو عليه واقصار وقرناء السوء المتلاحقون به من جيشه يقدحون للشرّ ناراً ويزيّنوا له عقوقاً ونفاراً فدهمتهم بعد ذلك عساكرنا المظفّرة بالله في مصافهم دونه ودارت بين الفريقين حرب عظيم فخدمت النار من وقت الظهر الى اوان العصر فاظهر الله فئة الحقّ على فئة الباطل وقضى بما جرى به القضا المحتوم الحاكم العدل وكتبناه اليكم وقد حصل في القصبة كما سبق به القضاء والقدر واجبر بمكان الاحتياط عليه بمكناسة الزيتون فكانت مشيّة الله في ذلك من احدى العجائب والعبر وعرّفناكم اسعدكم الله لتشعروا صنع الله في هذه الداهية التى فجات بها الايّام ودهمت والمفاجاة التى اعتكرت وادهمت وتقدروا ما صنع الله في ذلك من حسن العاقبة حقّ قدره ونشكره فهو الجدير بحسن حمد كلّ انسان وشكره ونسال الله تعالى ان يجعلنا في حيز الكفاية وجانب الوقاية حتّى لانساؤا بقريب مامون ولا ببعيد مظنون وفي ليلة الثلاثاء موفى

عشرين من جمادي الاولى عام احد عشر والف ووقفت على رسالة كتب بها المنصور اليه ايضاً في فاس مجيباً له عمّا كتب به اليه في شان الوباء لمّا ظهر بمرّاكش صانها الله هل يفرّ منه ام لا ونصّها من عبد الله تعالى المجاهد في سبيل الله الخليفة الامام امير المؤمنين ابي العبّاس احمد المنصور بالله ابن امير المؤمنين ابي عبد الله محمّد الشيخ المهدي ابن امير المؤمنين ابي عبد الله محمّد الشيخ القايم بامر الله الشريف الحسنيّ ايّد الله بعزيز نصره اوامره وظفّر عساكره واسعد بمنّه موارده ومصادره الى ولدنا الاجلّ الاعزّ الافضل الابرّ الارضى الاكمل الاسعد الامجد الاحفل بابا ابي فارس وصل الله عنايتكم ووالى بمنّه رعايتكم سلام عليكم ورحمة الله وبركاته امّا بعد فكتابنا هذا اليكم من حضرتنا العلية بالله المرينيّة البيضاء حاطها الله عن الخير والعافية ونعم الله تعالى المتوالية لله الحمد وله المنّة وانّه اتّصل بعلىّ مقامنا كتابكم الاعزّ عشية يوم الثلاثاء فكتبنا لكم صبيحة يوم الاربعاء ولولا انّه وصل يوم الديوان هذا ما كنّا نؤخّر كتب الجواب على ساعة وصوله في اليوم بنفسه حرصاً منّا بذلك على المبادرة بوصوله اليكم في الحين والى هذا اسعدكم الله اوّل ما تبادرون به قبل كلّ شئ هو خروجكم اذ لاح لكم شئ من علامات الوباء ولو اقلّ القليل حتّى بشخص واحد ويبقى في القصبة وصيفنا مسعود والقائد محمّد بن موسى بن ابي بكر واترك ماية رام تتقوّى بها من رماتكم مع اصحاب السقيف وتوكّلوا على الله وتخرجوا بسلامة ثمّ لا تعملوا كعملنا في الاقتصار على الرحلية والتغلب بها بل لاتزيدوا اذا خرجتم على المقام اكثر من يومين ثمّ اطووا المراحل الى ان تنزلوا سلا وتدخلوا بها دخول هناء وعافية ان شاء الله تعالى وهناك يكون لقاؤنا بكم لقاء يمن وسعادة ان شاء الله ثمّ لا تغفلوا عن استعمال الترياق اسعدكم الله فالزموه اذا استشعرتم منه بحرارة وتخوفتموها فاستعملوا الوصف من الوزن المعروف منه ولا تهملوا استعماله وامّا ولدنا حفظه الله لمّا كان من سنّ الشيبيّة فحيث يمنعه الحال من المداومة على الترياق فها هى

الشربة المعروفة النافعة لذلك قد تركناها كثيرة هنالك عند التونسيّ فيكون يستعملها هو والابناء الصغار المحفوظون بالله حتّى اذا احسّ ببرد المعدة من اجلها تعطوه الترياق المرّة والمرّتين على قدر الحاجة فيعود اليها والله تعالى بفضله وبحرمة صفوة خلقه خير البشر سيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم يتولّى حمايتكم ويسبل عليكم من جميل كلاءته ورعايته حصناً منيعاً ويعافي البلاد والعباد بمنّه وفضله والسلعة اسعدكم الله تبادرون بارسالها الينا وكذلك القائد مسعود النبيليّ تعزمون بارساله حيث امرناه بالقيام به من خندق الوادي في سوس وطريق تجظشت اسعدكم الله ساقط ارضنا ان امرها يتمّ وقبل عملنا الكريم انّ اهل درن يحدّثون بسببها ولكن هذا سبب يكون حجّة عليهم ان شاء الله وانتم تحاولون اسعدكم الله على ان يكون سلوك الناس على طريق بوبيارن على العادة وان تجهدوا في ان تكون ان شاء الله سابلة اولائكم اعني اهل طريق تجظشت يهبكث عنهم حتّى نصل بخير وعافية لتلك البلاد ان شاء الله تعالى ومسالة ابيي التي كتبت لك من خندق الوادي على الزرع وانهم ما عندهم ما يكفيهم منه سوى شهر فلقد كنّا كتبنا لكم اسعدكم الله على حمل الزرع اليهم على البحر فان كان قد تيسّر ذلك فيكون قد بلغ اليهم وان لم يكن ذلك قد تيسّر فلتامر ابيي هذا بالتدبير على الزرع ولو بالشراء والزموه عهدته وشدّوا عليه في امره وخالنا القائد احمد بن محمّد الذي استاذنكم على الخروج عن ذلك المرض من الحضرة المحمّدية فاذا تفاحش فلا عليه في الخروج ويلتحق باهل تلك المحلّة بخندق الوادي ويترك في القصبة الاندلس مع قائدهم ومسالة مومن بن منصور هكسيمة الذي ذكرتم اسعدكم الله ان مومناً المذكور قد تناقل بذمّتنا بسبب مرض الم به حتّى جاء به شاوش وان اخاه ذلكم المفسود بعث اليه ليلتقي معه بتامصلوحت فعلى بركة الله تعالى والحاضر بصير وهذا موجبه اليكم والله يصل بمنّه رعايتكم والسلام وفي يوم الاربعاء الرابع عشر من ربيع الاوّل المعظّم عام احد عشر والف وبعد ان كتبنا لكم هذا بلغنا كتابكم ونحن نجيبكم

على كلّ ما تحتاجون الى الجواب عنه والبراءة التي ترد عليكم من سوس من عند الحاكم او من عند ولد خالكم او من عند غيرهما لا تقراها ولا تدخلها داراً بل تعطيها لكاتبكم هو الذي يتولّى قراءتها ويعرفكم مضمنها ولاجل ان الكاتب يدخل عليكم ويلابس مقامكم فلا يفتحها الّا بعد ادخالها في خلّ ثقيف وتنشر فتيبّس وحينئذ يقراها ويعرفكم مضمنها اذ ليس ياتيكم من سوس والله سبحانه وتعالى اعلم بموجب الكتمان عن مثل كتابكم وقد طالعنا كتاب ولد خالكم احمد بن محمّد الصغير وصحّ عندنا من بحر كلامه ما ذكرتم عنه من انّه كثّر خبر الوباء ليجد ذريعة للخروج من سوس والذي تامرونه به انكم تحذرونه من القدوم عليكم لمرّاكش وان ذلك لا يرضينا منه وكيف يروم الخروج من موضع عيّناه له من غير امرنا لاسيّما مع غيبتنا عن البلد وانّه ان فعل ذلك لا محالة تسقط منزلته عندنا ثمّ لايعود اليها ابداً الّا ان تفاحش المرض بتلكم الناحية فلا عليه في الخروج والتنقّل قرب البلدان يلتحق بمحلّة اصحابه الذين بخندق الوادي واما ما ذكرتم عن محمّد بن عبد الرحمن الورديّ فقد طالعنا الجريدة التي جرّد لكم وتصفّحناها ورايناانّ جلّ ما يطلبه بها لا يمكن مع غيبتنا والذي نامركم به في مسالته انّكم تحاولون في ردّه لموضعه كانّه بذلك الموضع اليق من اخيه بكثير وكلّ ما يمكنكم من اغراضه المسطرّة بجريدته ان تقضوه فاقضوه له وما لا يمكنكم عدوه به عند قدمنا ان شاء الله واما امر اخي احمد بن الحسن الذي عيّناه بحياته درعة وذكرتم انّه غير لاحق بها وانّكم استصغرتموه عن تلك العمالة فلا شكّ انّه كما ذكرتم لكن انّما وقع الاختيار عليه لامرين الاوّل الذمّة لانّه بماله فلا يخشى ان شاء الله على مالنا الثاني ان خراج درعة سهل معلوم ولعلّه يكره هذه الولاية ويحبّ الجلوس بداره ويغرى من يتكلّم فيه عندكم فان كان من ذكره عندكم مثل مسعود اوتاديّ فاتهمهم وقد طالعنا جريدتكم وانّكم وجّهتم مع زرع المعاصير ماية رام وهذا الذي ذكرتم ما نعلم انا كتبنا لكم عليه قط وانّما كتبنا لكم على الزرع تحملونه في البحر بذمّة المحلّة التي هنالك

بخندق الوادي فان كان هو هذا فنحن اردناه للمحلّة وان كان غيره فعرفنا بقضيته فان زرع المعاصير انّما يلزم اليهود والنصارى وفيها ايضاً ما اخبركم به احمد بن محمّد بن موسى بخبر ما سقط من القنطرة وانّكم عنفتموه على عدم المبادرة وقد اشكل علينا الامر كونكم لم تعرفوا مقامنا بالساقط هل هو من القديم او من هذا الاصلاح الذي امرنا به فعرّفنا لنكون على بصيرة من ذلك وفيها ايضاً مسالة اولاد طلحة فدبّروا عليهم امامنا عند ايسى او غيره حتّى لا يرجعوا الينا شاكين وولد ابراهيم بن الحدّاد الى الان لم يصل وزمام الاسارى وصل واما الدرقة التي ذكرتم بها المعتلية المعدّة لها عند صاحب بيت ثيابنا فوجّه ليوسف العبدي حتّى تكلمه ومره يخرجها من عندها وركبها في موضعها ولا تركب التي عندكم بل امسكوها لانفسكم واعلم انّي تركت عند اولائك المعلّمين اعني بركاض السلاتي برسم ابنتنا العزيزة طاهرة صانها الله وكلاها وحيث فرغوا من الدرقة اجمعهم عليهم كي نجد ذلك طالعاً ان شاء الله فانا قد امرنا بنسج دراريع تلك السلاتي هنا والمراد ان نجد السلاتي قد فرغ منهم ان شاء الله وقصر الخيل مع الحمّام حرض المعلّمين على المبادرة باشتغالهما وحاول ان يسقفوا تلك البلاط الذي يوالي سور القصبة من قصر الخيل والقبّة التي فيها لنجدده كاملاً ان شاء الله عند قدومنا عليكم حتّى سواري الرخام ركّبوهم في تلك الجهة اذا سقفتم ولاتزالوا تعرفونا بما تزايد من الاشغال في الموضعين المذكورين واوصيكم اعزكم الله ان تتفقدوا فرسنا الاحمر الصغير ولا تتركوهم يعطونه الفصيل لئلّا يكثر لحمه ويزاد المه بل انظر له من يركبه كل يوم بل لا ينزع السرج بالكلّيّة عن ظهره بياض النهار كلّه واعطوه لصاحب المسرّة يركبه في ذهابه وايابه للمسرّة او لداره واوصوه الّا يركبه غيره وان لا ينزل عن ظهره النهار كلّه واوصيكم ايضاً اذا ظهر المرض بتلك البلاد وخرجتم خروج خير وسلامة بحول الله وقوّته الّا تتركوا وراءكم ابنة عمّكم والدة ولدنا العزيز بنت عبد المالك حفظه الله وامر يوسف العبدي ان يخرج لك من عند صاحب بيت الثياب القدر

المحتاج من الترياق الجديد الذي كان بقبّة المشور ودخل على ايديكم لدارنا السعيدة واستدعوا امّ المان قهرمانية الدار واعطه لهـا برسم دارنا وامرها ان تعطيه لهنّ في كلّ رابع من اليوم الذي ياكلونه فيه وهي ايضاً تاكل منه والعبديّ يوسف ياكل ايضاً منه وحتّى صاحب السقيف اعطوه منه اعني مسعود بن مبارك والله سبحانه يرعاكم ويتولّى حفظكم انتم واولادكم وقد استودعناكم الله الذي لا يضيع ودائعه وانتم في امان الله وحفظه والله تعالى خليفتي عليكم انتم في يمين الرحمن وكلتا يديه يمين والسلام الاتمّ معاد عليكم ورحمة الله وبركاته ونسلّم على ولدنا الاعزّ الارضى بابا عبد المالك وعلى ابنتنا المرضيّة سيدة الملوك ونحن في غاية الا شتياق والتوحّش اليكم جمع الله الشمل بكم امين بحرمة سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم وآله خير آل

ذكر الخبر عن وفاة المنصور

رحمه الله وكيفيّتها

كان ابتداء مرض المنصور رحمه الله بمحلّته في ظهر الزاوية موضع بظاهر فاس الجديد قريب منه يوم الاربعاء الحـادي عشر من ربيع النبويّ الانور المبارك من عام اثنى عشر والف فدخل في محلّته راجعاً الى فاس الجديد والتزم الفراش الى يوم الاثنين الموالي لتـاريخه فتوفّى رحمه الله ودفن يوم الاثنين عند صلاة العصر وكانت وفاته بالوباء قال الشيخ سيّدي عبد الرحمن بن يعقوب السملاليّ في شرحه لجامع شامل بهرام كان بالمغرب وباء استطال وطـال من عام سبعة والف الى عام ستّة عشر والف وعمّ سهل المغرب وجباله حتّى افنى اكثر الناس ومات جمع من الا عيان وبه مات السلطان ابو العبّاس احمد المنصور عام اثنى عشر والف ونحو هذا ذكر صـاحب الفوائد وغيره وبه يعلم ان ما

شاع على الالسنة من انّ المنصور سمّه ولده زيدان باشارة من امّه الشبانية في باكورة اوّل ظهوره وقطع عنه الاطبّاء الى ان هلك وانّ المنصور لمّا احسّ بذلك قال له استعجلتها يا زيدان لا هنّاك الله فيها او كلاماً هذا معناه قالوا وبسبب ذلك لم تنصر لزيدان راية فانّه هزم في زهاء سبع وعشرين معركة لا اصل له وهو كذب محض لانّ المنصور طعن بالوباء ولم يذكر احد ممّن يوثق به ذلك بل انّما شاع ذلك على السنة العامّة واضرابها من الطلبة ولمّا توفّى المنصور رحمه الله ودفن بعد صلاة العصر من يوم الاثنين بفاس العليا ونقل بعد ذلك لمرّاكش فدفن بها في قبور الاشراف وقبره شهير هنالك عليه بناء جميل وممّا نقش في رخامة على قبره هذه الابيات

هذا ضريح من غدت ... به المعالي تفتخر
احمد منصور اللوا ... لكلّ مجد مبتكر
يا رحمة الله اسرعي ... بكلّ نهر تستمر
وباكر الرمس بها ... انّ رضاه منهمر
وطيّبي ثراه من ... ندّ كذكره العطر
وافق تاريخ الوفا ... ة دون تقييد ذكر
مقعد صدق داره ... عند مليك مقتدر

ورايت في بعض المقيّدات ان بعضهم راى المنصور في المنام بعد وفاته فساله ما فعل الله بك فاجابه بهذين البيتين ولم يذكرهما فقال صاحب كتاب الاصليت كنّا نسمع انّ السلطان المنصور اذا خرج من مرّاكش قاصداً مدينة فاس فانّه لا يرجع لمرّاكش وشاع هذا الخبر في الناس وذاع فكان الامر كذلك ثمّ لا ادري من اين للناس بذلك هل انطقهم الله به واجراه على السنتهم او عن علم تلقّوه عن ارباب وكانّه الاشبه والله اعلم قال ومن هنا ما ذكر بعضهم ايضاً

لكن بعد الوقوع والنزول ان دخول راية السلطان ابي العبّاس في حياته للسودان واستيلائه على سلطانها سكية في دار امارته كانوا مع تينبكت باعمالها كلّ ذلك من امارات قرب خروج الامام الفاطميّ المهديّ وكذلك الوباء في بعض هذه الاعوام وكثرة الهرج والغلاء في سائر البلاد حتّى الان وبقى من امارات خروجه فيما نسمع فتح وهران امّا على يده او عن اذنه فيما يقوله من لا علم عنده بحقيقة الامر ومثل هذا الاساطير قد يفتن الغرير وليس الخبر كالمعاينة عند البصير ونعوذ بالله من اخذ فاس كما يقوله بعض الاخباريّين من الناس وقد ادهش الاسلام اختلاف الملوك من بنى احمد المنصور لانّهم قالوا ذلك من كبائر الاعلام وامارات التمام والتخمين مردود وعلم الحقيقة مفقود والباب مسدود والمفتاح غير موجود والامر المحتوم المعهود للملك الحقّ المعبود

ذكر الخبر عن تنازع اولاد السلطان ابي العبّاس المنصور

على الملك وما وقع بينهم في ذلك من التهالك والهلك

لمّا توفّى المنصور رحمه الله وفرغ من دفنه اجتمع اعيان فاس وكبراؤها واهل العقد والحلّ فيها على بيعة ولده زيدان وقالوا ان المنصور خلّفه في حياته ومات في حجره وممّن تصدّر لذلك قاضى الجماعة ابو القاسم بن ابي النعيم الغسانيّ بفاس والفقيه ابو الحسن علّى بن عمران السلاسىّ والاستاذ سيّدي محمد الشاوي والشيخ النظّار ابو عبد الله محمّد بن قاسم القصّار ويحكى انّ القاضى المذكور قام في الناس خطيباً وقال امّا بعد السلام عليكم فانّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لما مات اجتمع الناس على ابي بكر الصديق رضى الله عنه ونحن كذلك نفعل فقد مات مولانا احمد رحمه الله وهذا ولده مولانا زيدان هو اولى بالملك من اخوته فبايعه فبايعوه الحاضرون وكانت مبايعته يوم الاثنين السادس عشر من ربيع

الاوّل النبويّ سنة اثنتى عشر والف ثمّ كتب اهل فاس لاهل مرّاكش بالمبايعة لزيدان فامتنعوا منها وبايعوا ابا فارس بمرّاكش يوم الجمعة الموالي للتاريخ المذكور واسمه عبد الله وكنيته ابو فارس ويلقّب من الالقاب السلطانية الواثق بالله وكان عظيم البطن اكولاً مصاباً بمسّ الجنّ ويقال انّه لذلك ابتنى المسجد الجامع بجوار ضريح الشيخ العارف بالله ابي العبّاس السبتيّ وشيّد بناءه وشحن الخزانة التى بقبلة الجامع المذكور بنفائس الدفاتر وتحف الكتب كلّ ذلك رجاءً ان تعود عليه بركة ذلك الوليّ بالبرء من تلك العلّة وتقدّم انّ امّه اسمها الجوهر ويقال الخيزران وذكر في المنتقى ابياتاً من انشاء الكاتب عبد القادر بن احمد بن بالقاسم الفشتاليّ ممّاكتب تطريزاً على نجاد الواثق بالله مولاي ابي فارس المذكور وهى هذه بنصّها

اتيه وازري بكلّ نجاد ... يروق على حلّة اللابس
اذاكنت يوم الوغى محملاً ... بعضب حكى شعلة القابس
على عاتق الملك المرتضى ... سليل الوصىّ ابي فارس

وبعد امتناع اهل مرّاكش من بيعة زيدان ووقوع بيعتهم لابي فارس كثر في ذلك القيل والقال حتى صدرت فتوى من قاضى فاس ومفتيها تصريحاً بحديث اذا بويع الخليفتين فاقتلوا الاخر منهما وكان زيدان لمّا توفّى ابوه كتم موته وبعث من يقبض له اخاه الشيخ المسجون بمكناسة فمنعه من ذلك الباشا جودر وحمل الشيخ موثوقاً الى مرّاكش فدفعه لاخيه ابي فارس شقيقه فلم يزل مسجوناً عنده هكذا ذكر بعضهم وقال في شرح زهرة الشماريخ في علم التاريخ انّ زيدان لمّا اشتغل بدفن والده تحيّل القائد احمد بن منصود العلج فذهب بنصف المحلّة وخرج قاصداً مرّاكش وسرّح الشيخ من اعتقاله وذهب به الى اخيه ابي فارس فسجنه فلم يزل مسجوناً عنده الى ان بعث الباشا جودر لمقاتلة

زيدان لفاس فلمّا بلغ زيدان وادي امّ الربيع سرّح الشيخ من سجنه وقال له ولاصحابه جدّوا السير الليلة حتّى تصبحوا محلّة جودر بامّ الربيع وكان ابو فارس جهز جيشاً لمقاتلة زيدان وامّر عليه ولده عبد المالك مع الباشا جودر فقيل له انّ اخاك زيدان رجل شجاع عالم بمكائد الحروب وخدائعها وانّ ولدك عبد المالك لا يقدر على مقاومته فلو سرّحت اخاك الشيخ لكان اوثق للامر لانّ اهل الغرب يميلون له ولا يقاتلونه لانّه كان الخليفة عندهم فاطلقه ابو الفارس من ثقاف السجن وتعاهد معه على النصيحة والطاعة وعدم شقّ العصا عليه وبعثه في ستماية من جيش المتفرّقة الذين كان المنصور جمعهم ليبعث منهم الى كاغوا من عمالة السودان فلمّا بلغ الشيخ لمحلّة عبد المالك وعلم الناس به هرعوا اليه واظهروا الفرح به وكانت الملاقاة بينه وبين زيدان في موضع يقال له مواتة من وادي امّ الربيع فانهزم زيدان وخذله اكثر جيشه ورجعوا مع الشيخ وكرّ زيدان منقلباً الى فاس وكان ابو فارس اوصى اصحابه بالقبض على الشيخ ان وقعت الهزيمة على زيدان فلمّا وقعت الهزيمة على زيدان انعزل الشيخ بمن تبعه من اهل الغرب فلم يقدر له احد من اصحاب ابي فارس على شيء ثمّ توجّه الشيخ الى فاس متبعاً اثر زيدان فلمّا بلغ زيدان فاساً وراود اهلها في الحصار والدفع امتنعوا عليه وجاهروا بنصر الشيخ واعلنوا ببيعته والاذعان له فخرج زيدان عنهم بحشمه واثقاله فتبعه جيش عظيم من اصحاب ابي فارس فلم يقدروا له على شيء وذهب زيدان قاصداً الى تلمسان حتّى وصل وجدة اقام بها مدة ثمّ رجع لسنجلماسة ثمّ لدرعة ثمّ للسوس ودخل الشيخ لفاس وتلقّاه اهلها ذكوراً واناثاً واظهروا الفرح لقدومه فدعى لنفسه واستبدّ بالملك وامر جيش اهل مرّاكش ان ينقلبوا الى بلادهم فذهبوا وكان الشيخ لمّا تمّ له غرضه من الاستبداد بالخلافة والانفراد بالسلطنة دعا بالشيخين الفقيهين قاضي الجماعة بفاس ابي القاسم بن ابي النعيم ومفتيها ابي عبد الله محمّد بن قاسم القصّار فلامهما على مبايعة زيدان وقولهما فيه وفي اخيه ابي فارس انّ اولاد الاماء لا يتقدّمون على

اولاد الحرائر وكان ابو فارس والشيخ ولدي امة اسمها الخيزران ويقال الجوهر وزيدان امّه حرّة شبانيّة وعزم ان يمكر بهما ثمّ بعث بهما مع جيش مرّاكش الى اخيه ابي فارس لينظر فيهما برايه فامّا الشيخ القصّار فتوفّى رحمه الله في الطريق على مقربة من مرّاكش فدفن بقبّة القاضي عياض وذلك اواسط اثنى عشر والف وامّا القاضي ابو القاسم بن ابي النعيم فاجتمع بابي فارس فصفح عنه وقبل عذره وردّه مكرماً الى فاس هكذا ذكر بعضهم وقيل انّ الذي بعث للشيخ القصّار هو زيدان على وجه يخالف هذا والله اعلم ثمّ انّ الشيخ اشتغل بالقياد من اصحاب ابيه فنهب ذخائرهم واستصفى اموالهم وعذّب من اخفى شيأً من ذلك ودعى بالتجّار فاستسلف منهم واظهر من الظلم وسوء السيرة وخبث السريرة ما هو شهير به ثمّ انّه جهّز جيشاً لقتال شقيقه ابي فارس بمرّاكش وكان عدد الجيش نحواً من ثلاثة الاف وامّر عليه ولده عبد الله فسار بجيشه فوجد ابا فارس بمحلّته بموضع يقال له اكليم ويقال في مرس الرماد فوقعت الملاقاة بينهما واقتتلا قتالاً شديداً كانت الهزيمة فيه على ابي فارس وقتل من اصحابه نحو المائة ونهبت محلّته وفرّ هو بنفسه الى مسفيوة ودخل عبد الله بن الشيخ مرّاكش فاباحها نهباً لجيشه فنهبت ديارها واستبيحت محارمها واشتغل هو بالفساد ومن يشابه اباه فما ظلم حتّى يحكى انّه زنى بجواري جدّه المنصور واستمتع بحظاياه واكل رمضان وشرب الخمر فيه جهاراً وعكف على اللذّات والقى جلباب الحياء عن وجهه وكان ذلك كلّه في العشرين من شعبان عام خمسة عشر والف ثمّ انّ زيدان كان لمّا هرب من فاس حسبما بيّنّاه قبلُ قصد تلمسان فلم يزل مقيماً بها وكان بعث الى ترك الجزائر ليستعين بهم على اخوته فابطئوا عليه وطال عليه انتظارهم فلمّا يئس منهم توجّه الى سجلماسة فدخلها من غير قتال ولا محاربة ثمّ انتقل منها الى درعة ومن درعة انتقل الى سوس كما سلف فكتب اليه اهل مرّاكش ان ياتيهم ولو وحده فتوجّه اليهم فقدم عليهم ليلاً فلم يفجأ عبد الله بن الشيخ الا

نداء اهل مرّاكش بنصر زيدان وتحزّب اهل مرّاكش مع زيدان وقتلوا قائد الشيخ وهو عبد الله اعراص وخرج عبد الله بن الشيخ بجيوشه فحاصرهم اهل مرّاكش بين اسوار الاجنّة فقتل بموضع يعرف بجنان بكّار من اصحاب عبد الله بن الشيخ نحو الخمسة الاف وخمسماية وامر زيدان بقتل من تخلّف عن عبد الله من جيوشه فقتل من وجد من جيوش اهل فاس بمرّاكش ثمّ انّ عبد الله ذهب مهزوماً ولمّا دخل على ابيه الشيخ مفلول العساكر مهزوم الجموع غاظه ذلك واحزنه ما راى فرام ان يهيّء عسكراً اخر ويجدّد جمعاً ثانياً فلم يجد لذلك طاقة لفراغ يده من الاموال وقلّة ذخائره واستحيى ان يستسلف من التجّار لانّه كان تسلّف منهم فلم يردّ لهم ما تسلّف منهم فلمّا راى ذلك قلب لقياده ظهر المجن وعكس لهم القضية فنهب اموالهم واستسلب ذخائرهم وصار يفرّقها على التجّار فجمع في ذلك اموالاً عريضة وفرّقها على الجيش وتهيّا عبد الله للمسير لمرّاكش وكان اهل فاس قد غضبوا لما قتل منهم بمرّاكش ما قتل ونادوا باخذ ثارهم حتّى انّ بعضهم خرج مع عبد الله بن الشيخ من غير اخذ راتب ولا جامكية فخرج عبد الله بن الشيخ من فاس بجموع عديدة وجيوش حافلة مديدة ولمّا بلغ خبره زيدان وهو بمرّاكش بعث للقائه الباشا مصطفى في جيوش كثيرة من اهل مرّاكش ونواحيها فالتقى الجمعان بموضع يقال له وادي تفلفلت على طريق سلا فكان بينهما قتال عظيم وقعت الهزيمة على مصطفى فقتل من جيوش مرّاكش نحو التسعة الاف وبعث الشيخ جماعة من عدول فاس لموضع المعركة حتّى احصوا القتلى ثمّ توجّه عبد الله لمرّاكش فخرج له اهلها في نحو ستّة وثلاثين الف مقاتل فالتقى الجمعان ايضاً بموضع يقال له راس العين فانهزم اهل مرّاكش وفرّ زيدان منها الى المعاقل المنيعة والجبال الشامخة ودخل عبد الله لمرّاكش ايضاً ولمّا دخل عبد الله مرّاكش فعل في المدينة اعظم من فعلته الاولى وهرب شرذمة من اهل مرّاكش الى جبل جيلز واجتمع هنالك منهم عصابة من اهل الحمية والنجدة والنفوسيّة فلمّا

اجتمع منهم من ذكر اجمعوا رايهم على ان يقدّموا للخلافة عليهم مولاي محمّد ابن مولاي عبد المومن ابن السلطان مولاي محمّد الشيخ المهديّ وكان رجلاً ديّناً خيراً صيّناً وقوراً مهاباً فبايعه اهل مرّاكش هنالك فخرج عبد الله بن الشيخ الى مقاتلتهم بجبل جيلز واخذ اميرهم المذكور فلمّا التقى الجمعان وقعت الهزيمة على عبد الله وولّى اصحابه الادبار فخرج من مرّاكش مهزوماً واستولى محمّد بن عبد المومن على المدينة وصفح عن الذين تخلّفوا من اهل الغرب من جيش عبد الله واعطى الراتب فلم يعجب ذلك اهل مرّاكش وعنفوا عليه استيفاءه عليهم وكانوا نحو الالف ونصف فكتبوا سرّاً الى زيدان فاتاهما وخيّم نازلاً على المدينة فخرج محمّد بن عبد المومن الى لقائه فالتقيا وكان بينهما حرب شديد هزم فيه ابن عبد المومن ودخل زيدان الى مرّاكش وصفح ايضاً عن الفئة المختلفة عن عبد الله بن الشيخ وذكر في شرح زهرة الشماريخ انّ هذا الثائر المبايع بجبل جيلز اسمه ابو حسّون من اولاد السلطان ابي العبّاس احمد الاعرج المتقدّم الذكر قال وكان بعث مصطفى وخرّجوه من مرّاكش في شعبان عام ستّة عشر والف قال وكانت الهزيمة على عبد الله بن الشيخ سادس شوال من السنة فخرج هارباً وترك محلّته وانفاضه وعدّته وجلّ الجيش وخرج على طريق تامسنا وامتحن اصحابه في ذهابهم حتّى كان مدّ القمح عندهم بثلاثين اوقية والخبزة من نصف رطل بربع مثقال ولم يزل اصحابه ينهبون ما يمرّون عليه من اهل الخيام واهل العمود ويسبون البنات وكان وصولهم لفاس في الرابع والعشرين من شوال السنة ثمّ في اخر ذي الحجّة من السنّة حرك عبد الله ايضاً قاصداً لمرّاكش فالتقى الجمعان بوادي بوركراك فهزم عبد الله وفرّ في رهط قليل من اصحابه وترك محلّته فعفى زيدان عن الناس وكان ذلك في شوال عام سبعة عشر والف ثمّ بعث زيدان الباشا مصطفى امامه لفاس فبلغها ونزل عليها فخيّم بظهر الزاوية ووجد لاصحابه زروعاً كثيرة ففرّقها مصطفى في اصحابه ثمّ ارتحل مصطفى ينوي القبض على الشيخ وولده

عبد الله وابي فارس وولده عبد المالك اذ كانوا كلّهم بالقصر الكبير فلمّا بلغ الشيخ خبره ركب البحر من العرائش مع قوّاده ووالدته فقبض مصطفى على من وجد بالقصر الكبير من اصحابهم وفرّ عبد الله وابو فارس فنزلا بموضع يقال له سطح بنى وارثين فبلغ خبرهما زيدان فقدم ونزل قبالتهما بموضع يقال له اروارارت ففرّ الجيش عنهما الى زيدان وهرب عبد الله وابو فارس حتّى وصلا لدار ابن مشعل فلم يزالا بها الى ان رحل زيدان لمرّاكش بسبب ما بلغه من ثوران بعض القيّام هنالك فقدم حينئذ عبد الله وابو فارس من دار ابن مشعل قاصدين فاس فخرج مصطفى لمقاتلتهما فتقاتلا قتالاً طويلاً فعثر به فرسه وسقط عنه فاخذ وقتل ومات معه ما لا يحصى من الناس واخذت محلّته باسرها ووقع النهب حتّى انتهبت من البقر التى للبانة نحو الستّة الاف فدخل عبد الله مدينة فاس مع عمّه ابي فارس وكان ذلك كلّه سابع ربيع الثاني عام ثمانية عشر والف

ذكر الخبر عن مقتل ابي فارس

وبقية من اخباره

كان ابو فارس لمّا هزمه زيدان اوّلاً فرّ الى السوس فاقام به عند صاحب ابيه عبد العزيز بن سعيد ثمّ لمّا بالغ زيدان في طلبه فرّ الى اخيه الشيخ فلم يزل مع ابنه عبد الله بن الشيخ الى ان قتل عبد الله مصطفى ودخل مدينة فاس واستولى عليها كما ذكرناه قبل آنفاً فاتّفق راى قوّاد الشراقة على قتل عبد الله وتولية عمّه ابي فارس فبلغ ذلك عبد الله فدخل على عمّه ابي فارس ليلاً مع حاجبه حمّ بن عمر فوجده على سجّادة وجواريه حوله فاخرجهن وامر بعمّه فخنق وهو يضرب برجليه الى ان مات وذلك في جمادي الاولى

سنة ثمان عشرة والف فاسف الناس عليه لانّه كان يردّه عن كثير من القبايح وينهاه عن فعل المناكر ولا يرضى منه افعاله الخبيثة والحول والقوّة بالله والامر الى الله

ذكر الخبر عن السلطان الشيخ بن المنصور

وما وقع الى حين خلعته وقتله

كان من خبر الشيخ ما انتهى ذكرنا له قبل وانّه هرب الى العرائش ومنها توجّه الى العدوة من ارض العدوّ مستصرخاً بطاغية الروم دمّره الله فابى ان يمدّه فراوده على ان يترك عنده اولاده وحشمه رهناً ويعينه بالمال والرجال فلم يكترث به الى ان شرط عليه ان يخلى العرائش من المسلمين ويملّكها للنصارى فقبل الشيخ ذلك والتزمه وخرج حتّى نزل حجر بادس وذلك في ذي الحجّة عام ثمانية عشر والف فاقام بها مدّة وكان الشيخ لمّا خرج في حجر بادس ونزل بلاد الريف ذهب علماء فاس واعيانها كالفقيه القاضى ابي القاسم بن ابي النعيم والشريف الوجيه المنيف النزيه ابي اسحاق ابراهيم السقلّى الحسنّى وغيرهما لملاقاته وتهنيته بالقدوم فلمّا بلغوه فرح بهم وامر قبطان النصارى ان يضرب بانفاضه ارهاباً واظهاراً لقوّة النصارى الذين استصرخ بهم فضربها حتّى اصطكّت الاذان وارتجّت الجبال ونزل القبطان من السفينة للسلام على الاعيان فلمّا راوه مقبلاً امرهم الشيخ بالقيام له فقاموا له اجمعون وجازوه خيراً على ما فعل بالشيخ من الاحسان والنصرة وسلّم هو عليهم بنزع قلنسوته كعادة النصارى وانكر الناس على اولائك الاعيان قيامهم للكافر وضربوا بعصا الذلّ والهوان من الملك الديان حتّى انّهم في رجوعهم لفاس تعرّض لهم عرب الحياينة فسلبوهم واخذوا ما معهم وجرّدوهم من ملابسهم جميعاً ما عدى